المتقون هم المتحضرون

الأستاذ الدكتور
محمود محمد محمد عماره
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل

النفس اللوامة هى: التى تعاتب.. وتلوم نفسها في الخير.. إن تركته أو قصرت فيه..

مرددة.. ودائما: ما أردت بكلمتى... ما أردت بلقمتى ما أردت بحديث نفسى...

أما النفس الأمارة فهى: الفاجرة .. التى تنطلق.. يقودها الشيطان إلى الهاوية .. لا تلوم.. ولا تحاسب..

أما النفس المطمئنة فهى : التى اطمأنت تحت الأمر والنهى.

وهى هى نفس المتقين.. الذين نحاول فى هذه الصفحات أن نبرز بعض خصائصهم كرواد حقيقيين إلى الكمال الإنسانى.. من خلال آيات سورة آل عمران.. على نحو يجعل منهم النموذج الحضارى.. بما استجمعوا من سمات الحضارة المتمثلة فى:

طاعة الله تعالى.. تعظيما له..

والشفقة على خلقه.. لأنهم عياله

والله تعالى المسؤول أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا.

د. محمود محمد عمارة

تمهيـــد

فطرة الله..

نقلت الأنباء أن زعيم دولة كبرى ـ ممن صعدت إلى القمر ـ نادى فى قومه أخيرا: عودوا إلى الدين!

ومغزى هذا النداء أنه: إعلان صريح عن إفلاس الحضارة المادية.. التى لم تعد كافية لتلبية حاجات البشر..وهو شعور بالإخفاق. ثم بالإشفاق على حضارة الأشياء..أو الأشقياء.. التى أخذت الأرض فيها زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها..

وكانت لحظة الصعود..هى لحظة الهبوط.. وصار أشقى الناس.. أرقاهم!! ويأتيها أمر الله تعالى على لسان قائدها..

أهمية النداء:

ويأخذ هذا النداء أهمية قصوى:

أولا: لأنه شهادة من فرع الشجرة التى لا يهزها إلا فرعها.

ثانيا: ثم هى شهادة القمة.. وممن يملك القرار.

ثالثا: أصالة فطرة التدين.. التى لا تموت مهما علاها الصدأ.

رابعاً: سقوط الفكرة الخاطئة.. الطارئة على هذه الفطرة والتى يظن أهلها أن قدم الفكرة تثبيت لها..

لقد سقطت الشيوعية.. بعد سبعين عاما ظن أهلها أنهم قادرون على استبقائها.

خامساً: فى هذا رد على المخدوعين بمذاهب الأرض..الظانين أن نجاح هذه الأمم فى الكونيات دليل على نجاحهم فى الاجتماعات.

لماذا النداء بالعودة إلى الدين

ماذا رأى زعيم هذه الدولة حتى نادى فى قومه بضرورة العودة إلى الدين؟

لقد رأى من آيات ذلك.. تمزقا:

أ ـ على مستوى الفرد

ب ـ وعلى مستوى الأسرة

جـ ـ وعلى صعيد المجتمع

لقد تمزق الفرد هناك.. ولم يجد بدا من الفرار من الحياة بالانتحار.. حتى هذه المرأة التى يصلها يوميا ثلاثة آلاف خطاب من المعجبين بها..

لكن هذا الود المصنوع لم يغن عن قيم الروح شيئا..

وحتى الأم الرءوم.. على صعيد الأسرة. يخنقها الملل.. فى بيت حافل بكل الأجهزة الحديثة.. فتضع ابنتها فى درج المكتب.. ثم تغلقه.. ببرود.. لتموت فلذة كبدها خنقا!

والبنت هناك.. يرفض مالك الدار أن يؤجر لها حجرة بثمن بخس.. تخرج باكية.. لأن المالك هو أبوها.. ومع ذلك فلم يرق لها !!

هذا فى الوقت الذى تقتل الأنانية فيه كل حركة إصلاحية إنسانية.. بل لا تسمح بأدنى درجات التضحية فى سبيل المبدأ..

يؤكد لك ما ترامت به الأنباء من أمر هذا الوالد الذى هدده الوحش البشرى بالقتل إن لم يسمح له بمواقعة ابنته التى كانت معه. ويطأطئ الجبان رأسه.. وتسمح له أنانيته.. ليعود إلى البيت.. ثم يترك الفريسة للوحش.. ليقتله.. ليقتل عرضه..

وماذا يبقى للإنسان.. بعد أن فقد أعز ما يملك إنسان !!.

شهادة العلماء

وتأتى شهادة رجل العلم بعد شهادة رجل السياسة:

يقول رينان:

[من الممكن أن يضْمحل كل شىء نحبه.. وأن تبطل حرية استقلال العقل. والعلم. والصناعة. لكن.. يستحيل أن ينمحى التدين! بل سيبقى حجة على بطلان المذهب المادى. الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة من الحياة الأرضية].

وإذا كان التدين بإطلاق.. هو القاعدة التى لا تقبل الزوال.. فإن الإسلام هو الأجدر بهذا الوصف.. بشهادة الأجانب أنفسهم:

فهذا ولى عهد بريطانيا يقول: الآن: بدأنا ندرك العواقب الوخيمة لاستسلامنا لتعاليم الحضارة المادية..

ومن توصياته: تعلموا من الإسلام أيام رقيه. ثم يطالب بضرورة الاستعانة بالمعلمين المسلمين فى إعداد الشباب.

ومن التطبيقات العملية هنا.. أنهم فى كندا.. بحثوا عن الشباب المسلم.. الذى لا يشرب.. ولا يسهر.. ولا يمضغ الكلام.. طلبوه لإنقاذ مشروع هناك.. بدأ يترنح لمأ وكل إلى شبابهم المستهتر.. ونجحت التجربة.. وكانت انتصارا للإسلام.. فى بلاد لا تدين بالإسلام!

ذلك بأن الفتى الماجن المخمور لا يصلح لعمل صالح.. أما رجل التوحيد فهو الصالح المصلح..

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

فمثل الرجل الفارغ من عقيدة التوحيد: مثل رجل يملكه شركاء.. لا شريك واحد.. ثم هم شركاء متشاكسون..

والشَّكِس هو: الشرس.. إنه سيئ الخلق..

وشكس واحد.. يكفى.. فكيف وهم ثلة من المتشاكسين؟!! ثم هم متحكمون.. فيه.. فى عمقه.. لا فى هامشه..

فماذا يبقى من وجوده.. بعد ما أعملت فيه الوحوش أظفارها؟!!

إنه غير موجود.. إذن فلا حضارة هناك.. لأن البشر هم مادة الحضارة.. ولا بشر هنا.. ولا بشرى!!

أما الموحد: فهو رجل.. إزاء رجل.. وكان «سلما»

فهناك تقدير متبادل بين الطرفين.. صار البيت فى ظله واحة جميلة.

والطاقة المبذولة لدي المتشاكسين فى الشجار والشقاق.. مرصودة هنا للبناء..

لأن الرجل.. مسلم لسيده: مسالم.. مستسلم.... صالح... راض.. برىء من العيوب..

وإذن فهو المؤمن الموحد الذى: لا يخاف على رزق.. فلا يحتال.. ولا يخاف على بضاعة فلا يساوم ولا يخاف من الموت.. فهو شجاع.. ولا يخاف على منصب.. فلا يساوم على كرامته..

إنه لا يخاف من المخلوق بعد ما تصور عظمة الخالق الواحد الأحد.. وإذن فهو مادة الحضارة.. وركيزتها.

من ثمرات التوحيد

عندما يؤمن الإنسان بإله واحد.. قادر.. مريد.. فإنه لا يخاف من أحد..

وانتفاء الخوف يعنى: الحرية...والحرية تعنى: الانطلاق.. وتفتح البراعم الجديدة..

ويعنى ذلك كله رسوخ ملكة الاختراع والابتكار..

ونذكر هنا من سيرة «المعتضد» أنه شجع العالم «ثابت بن قرة» والذى مهّد لحساب التفاضل والتكامل[1] بتشجيع من المعتضد..

والقصة هنا: أن الخليفة المعتضد كان يحترمه ثم يغدق عليه. وحدث أنه كان يمشى معه يوما. ويد الخليفة متكئة على يد «ثابت بن قرة». وفجأة.. نزع الخليفة يده. ففزع ثابت.. لمهابة المعتضد. فقال له المعتضد آسفا.. بل معتذرا: يا أبا الحسن: سهوت.. ووضعت يدى على يدك.. واستندت عليها.

وليس هكذا تعاملُون: !! فإن العلماء.. يَعلون.. ولا يُعلون!!

فانظر إلى أدب الخليفة فى معاملة العالم.. والذى كان بشمائله معينا له على الانطلاق فى الآفاق.. إلى جانب ما رصد له من مال تحت تصرفه ينفق كيف يشاء..

وهو كزميله الخليفة العباسى: عضد الدولة.. والذى رعى الطبيب العالم «أبو بكر الرازى» والذى ظل مرجع أوروبا فى الطبّ حتى القرن السابع عشر!

وهكذا.. وفى ظل عقيدة التوحيد.. تتكامل القيادة مع الشعب فى منظومة راشدة.. يصلح الله بها أمور المعاش والمعاد.

وذلك عكس ما تفرد به اليهود من «الأنانية» التى كانت نضح عقدة الشعب المختار.. والتى حملتهم على أن يحبّوا الذات.. ويكرهون ما يخدشها وهو

---

(١) هو علم يستفيد من القوانين الطبيعية. وما يترتب عليها من اختراع.

الموت.. ثم يكتمون الدين ليكون لهم.. فلا يبشرون به.. بل يمنعون القادم إليه.. ليظل دونهم طريدا شريدا.

إنها قصة الطفل الذى يبلغ إحساسه بذاته حد الأنانية.. والتى كان من قوانينها: أنا.. ومن بعدى الطوفان!! إذا مت ظمآنا.. فلا نزل القطر!!

ولكننا بالتوحيد ـ نبلغ مبلغ الرجال.. نرتفع من سفح الأثرة.. إلى سماء الإيثار لنعيش.. وبنا يعيش الآخرون..

فأنا.. وغيرى: وجارى.. وزميلى.. وصديقى.. كلنا صف واحد.. فى مواجهة السلبيات.. متعاونين على البر والتقوى..

وذلك بعقيدة التوحيد.. التى ترتفع بأناس إلى سطح القمر.. بينما الفارغون هناك.. فى سابع أرض!!

إن المسلم فى ظل عقيدة التوحيد.. عنصر فعال فى منظومة الكون.. ولا يعيش أبدا وحده..

وهو كهذه الطيور: الطيور المهاجرة: إنها تتقارب فى جو السماء.. وتتلاصق.. ثم تجىء تحتها طيور أخرى تضرب بأجنحتها.. وبقوة.. وبصورة مستمرة..

وهى تخلق تيارا دافعا للطيور التى فوقها.. ثم.. تتبادل المواقع.. وتتم الرحلة بنجاح..

وصدق الله العظيم: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ﴾ [الملك: ١٩].

إنسانية

الحضارة الإسلامية

تحت إلحاح راكب مذعور.. عادت الطائرة إلى أرض المطار قبل أن تتم رحلتها.. لماذا؟

لأنه نسى قطته هناك فى غرفة الأمتعة !!

وتقلب الصفحة لتجد خبرا يقول: الحكم بسجن رجل رفس كلبا!

ويظل مسلسل الرفق بالحيوان.. أو تدليل الحيوان.. إلى الحد الذى يجتمع فيه ممثلو أربعين دولة.. ثم يطالبون بالتسوية بالغوريلا.. والتى أنفق على بقاء نوعها خمسون ألف دولار.. بل قد طردت قبيله برمتها لتحيا الغوريلا؟!!

وهكذا.. رحمة بالحيوان.. أكثر من اللازم.. ثم ظلم للإنسان.. أكثر من اللازم..

هذا الإنسان الذى أبيح عرضه.. بل استحل دمه... فلم يعد يساوى فى عرف الحضارة المادية قطة عمياء!

لكن الإسلام شيء آخر: فالإنسان هو: أثمن حلقة فى سلسلة الموجودات.. ولكن.. يبقى للحيوان حقه فى الحياة..

يقول لك الإسلام: إذا لم تستطع إطعام حيوانك.. فبعه! حتى القطة العمياء: إذا تسربت فدخلت بيتك.. فعليك إيواءها وإطعامها.

ولما عميت الشهباء ـ بغلة الرسول ﷺ ـ وسقطت أسنانها كان يفت لها الشعيْر..

إنه احترام لمعنى الحياة.. ولو كانت حياة بغلة عمياء!

وعلى طريقه ﷺ مضى سلفنا الصالح:

كان أبو إسحاق الشيرازى يمشى فى الطريق. ومعه صاحب له. فعرض له

كلب فزجره صاحبه. فنهاه الشيخ وقال له:

أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه؟!

{تناقض الحضارة المادية}

أباد الصرب مائتى ألف مسلم..وشرد ثلاثة ملايين.. والمقابر الجماعية عاجزة عن مواراة الجثث!!

وهكذا يفعل الغرب فى عصر التنوير..إنه يفضل أن يقع فى التناقض.. ولا يلتزم باحترام كرامة الإنسان.. وإلا.. فما معنى هذا؟

ما معنى أن غلاما فى سن التاسعة يكتب اسمه بالأسمنت على الرصيف فيحكم عليه بدفع أحد عشر دولارا..

ولكن الذين يشوهون جمال الحق.. ويمرغون عرض الإنسان.. الذين لا يشوهون الأرصفة.. ولكنهم يهدمون الدور والقصور.. يمرحون!!فمن الذى ينهار.. حضارتنا.. أم حضارتهم: لقد زعموا أنهم فى القمة.. ونحن فى السفح..

وإذن فالذى ينهار هم الذين يتربعون على القمة.. إن كان فى دنياهم قمم!!

من بركات التقوى

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يقول العلماء: صحيح أن للظواهر الاقتصادية أسبابها العلمية. .

ولكن خالق هذه الأسباب يرد كل هذه الأسباب إلى أصلها الأصيل وهو:

الإيمان. . وثمرته وهى: التقوى.

ومتى أسفرت التقوى عن نفسها عملا صالحا مصلحا. . استنزل المؤمنون بها بركات. . من فوقهم. . فينزل المطر. . ويتحقق الأمن من الصواعق. .

ومن الأرض: يأمنون من الزلازل. . ويكون الخصب. . بمضاعفة المحصول وحمايته من الآفات. .

وأهم هذه البركات جميعا: توفيق الله تعالى قادة الأمم إلى الرأى السديد والعمل الرشيد. . فيعمل الناس فى جو من الأمن يوفر الطاقة لتظل مرصودة للبناء والتعمير.

إن استتباب الأمن من أسباب اطمئنان القلوب. . ومتى اطمأنت القلوب. . نشطت الجوارح للعمل الجاد المخلص. . تحت رعاية ملك هو القلب. . الذى هو المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله. .

ونذكر هنا قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا . مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا . خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

وإذن. . فإهمال الذكر سبب فى شقوة الأبد. . وقبل ذلك. . فى الدنيا. . فإن الإعراض عنه سبب للضنك وسوء العيش. . بقدر ما يكون الالتزام به سببا للرخاء. .

يقول تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ . وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ـ ١٢٧].

وقد تبقى بقية من الشك فى قدرة التقوى على تحقيق الرخاء.. ذلك بأن بعض الناس يفهمون التقوى معنى مبهما.. غامضا.. وأنى له أن يحقق الرخاء؟!!

لكن التقوى من خلال آيات القرآن الكريم.. تبدو خصائص إيجابية عملية.. فى واقع الحياة..

فالمتقون.. كرماء.. ينفقون.. ولا يبخلون.. ثم إنهم صابرون.. يكظمون الغيظ.. بل ويعفون عن الناس..

ويعنى ذلك سلامة بنائهم العصبى.. وما يترتب عليه من قدرة على تحمل المهام الكبار..

لقد استجمعوا بالصبر خميرة التقدم.. فمناهج التربية فى العالم تقوم على فضيلة الصبر.. وضبط النفس.. وهو ما تحلى به المتقون..

وليست حضارة المادة على شيء بما تملك من بهرجة وعنف.. وحمق..

لقد مر ﷺ على قوم يتصايحون فلما سأل قالوا: هذا رجل صُرَعة.. لا يواجه أحدا إلا صرعه..

فقال ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة[1].. ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب».**

أما بعد: فإن إنسانية الحضارة الإسلامية لتأخذ معناها الحقيقى فى معاملة الخدم!!

---

(١) صُرَعة. مثل هُمزة. وأُكلة.. من صيغ المبالغة.

وفى نظام الوقف الإسلامى.. ما يؤكد هذه الحقيقة.. الدالة على حساسية الضمير الإسلامى إلى غاية ليس وراءها وراء..

لقد رصد الأغنياء وقفا يغطى حاجات كثيرة.. وفى مقدمة هذه الحاجات..

أن الخادم لو كسر إناء.. وهو فى طريقة إلى السوق.. فإن هذا النوع من الوقف يتدخل.. لشراء إناء بديل..ومن نفس الحجم. ونفس النوع..حتى لا يكتشف السيد أن شيئا حدث ويظل الخادم موفور الكرامة.

وبعد : فهذه الصفحات بين يدى القارئ العزيز.. تجلية لخصائص المتقين.. والتى هى مجموعة القيم الإنسانية التى هى عصب الحياة.. وبدونها لا تكون.. تجليها.. عبر آيات من القرآن الكريم تجلية شاهدة بأن المتقين.. هم المتحضرون

*****

مستويات الناس: أمام دعوة الحق

يقول تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

تمهيد

يتحرك الإنسان فى دوائر ثلاث:

إما أن يكون مشغولا بأمور آخرته..

وإما أن يكون مهموما بشؤون معاشه..

وإما أن يكون تائها فى ضباب الوساوس والأباطيل..

وذلك شأن الجماهير الفقيرة من الناس الذين ينطلقون على هواهم فكانوا كما قال العارفون: يتقلبون فى النِّعم.. ثم تُلهيهم سكرتُها عن شكرها..

يَرْغبُون فى العلم.. ويتركون العمل.. يسارعون إلى الذنوب.. ويؤخرون التوبة.. يغترون بصحبة الصالحين.. ثم يتركون الاقتداء بهم..

وتُدْبِرُ الدنيا عنهم.. ولكنهم يتبعونها.. ثم تُقبل الآخرة عليهم.. بينما هم معرضون عنها وهكذا.. لا تجد أكثر الناس شاكرين.. ولا ذاكرين وإذا كان هناك مَلَك يَعد بالخير.. والتصديق به..

فهناك شيطان يعد بالشر والتكذيب بالحق.. ولما كانت نفس الإنسان كالرَّحى: تدور بما يُلقى فيها فإن أَلقَيْت حباً.. دارت به.. وإن أَلقَيْتَ فيها حصى.. دارتْ به

لما كانت النفس كذلك.. فقد تعيّن على العبد أن يستقبل عِدة الخير.. مستدبرا وسوسة الشيطان.. حتى تدور نفسُه بما يُلقى فيها من حَب الحصيد..

والآية الكريمة: دعوة إلى أمرين:

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

المغفرة . . وجنة عرضها السموات والأرض .

والدعوة إلى المغفرة تعنى : {إزالة العقاب .

والدعوةُ إلى الجنة تعنى : إيصال الثواب . فَجَمع الله تعالى بينهما للإشعار بأنه لابد للمكلف من تحصيل الأمرين} [1] .

وإذن فالآية الكريمة دعوة إلى الإنسان . . إلى الملاح التائه . . أن يُغيِّر اتجاهه . . متخذا سبيله القاصد إلى مغفرةٍ من الله ورضوان ثم يَفرد شراعه فى اتجاه الموج . . مسرعا . .

ويحمله على ذلك أمران :

الأول: أن الدعوة الكريمة موجهة إليه من ربه . . ممن شهد من آلائه . . وألطافه . . وبركاته ما يؤكد ضرورة الالتزام بأمره تعالى . .

الثانى: أنها دعوة إلى الجنة . .

وهى جنة من السعة بحيث لا يَجُدُها خيال . . ألا وإن سلعة الله غالية . . وسلعته تعالى هى : الجنة . .

وعلى الذين يتشوقون إليها أن يسعوا لها سعيها . بما يكافئها من عمل صالح

وهذا هو الموقف المتوقَّع من المؤمن . . وكذلك كان رد الفعل لدى المؤمنين عبر التاريخ . . والذين وَعَوْا مغزى هذا التوجيه . . فكان أحدهم يقرأ الآية الكريمة كانها نداء موجه إليه شخصيا . . فيعطيها كيانه كله . .

أمّا رد الفعل هناك . وعلى الجبهات الأخرى . . فكان مختلفا :

رُوى أن هرقل كتب إلى النبى ﷺ يقول : إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض . . فأين النار؟

فقال النبى ﷺ : «**سبحان الله ! ! فأين الليل إذا جاء النهار**»؟ ! !

إنه يكون حيث شاء الله تعالى !ويبدو أن اليهود كانوا وراء هذا السؤال الذى

(١) الرازى .

تكرر على لسان رجال توجهوا به إلى الصحابة رضوان الله تعالى عنهم.. فكان جوابهم كما أجاب ﷺ :

عن طارق بن شهاب: أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن جنة عرضها السموات والأرض. فأين النار؟

فقال عمر: أرأيتم إذا جاء الليل.. أين النهار. وإذا جاء النهار.. أين الليل.

ويكون المعنى كما ذكر ابن كثير: { أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار.. أن يكون فى مكان وإن كنا لا نعلمه. وكذلك النار: تكون حيث يشاء الله عزوجل}[1] .

وإجابة الرسول ﷺ والصحابة من بعده.. تُحذِّر المؤمنين من إطلاق سراح الأوهام.. التى تهيم بالغافلين فى كل واد.. ليَّدخروا طاقة الفكر.. وطاقة العمل لتطبيق مدلول الآية الكريمة ليصير واقعا ملموسا: بدل أن تصير جدلا.. لا يغنى عن الحق شيئا..

وإنما الذى يغنى عن الحق أن تصير الآية حقيقة تراها العين.. وقد رأتها العيون فعلا: تمثلها جنود سارعوا فعلا إلى الجنة.. ففازوا بها: ففى حرب الروم مع المسلمين على أرض الشام اقترب واحد من جنود المسلمين اقترب من القائد المسلم: أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وقال له:

إنى قد عزمت على الشهادة. فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ.. أبلغها له.. حين ألقاه؟!.

فقال أبو عبيدة: نعم.. قل له: يا رسول الله: إنا قد وعدنا ربنا حقا..وعندئذ انطلق الرجل بسيفه مقاتلا.. حتى استشهد..

---

(١) تولى اليهود أيضا كبر الحملة التى أعلنت عند نزول قوله تعالى: **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** فقالوا: وأين يكون الناس عندئذ؟!!

فى بلاد لا تدين بالإسلام.. غيرُ مسموح لإنسان أن يقطع شجرة خضراء.. حتى ولو كانت فى بستان منزله.. غَيرُ مسموح.. إلا بإذن من الدولة..

وقد.. ويجىء مندوب الدولة ليَعْرِفَ هل هناك من ضرورة لقطع هذه الشجرة؟

وقد يُستفتى أهل الحى.. الذين اعتاد والنظر إلى هذه الشجرة بمشهدها الجميل

وإذا كنا لا نخفى إعجابنا بهذا الحرص على أن تظل البيئة جميلة.. ظليلة.. فإننا لا نخفى عجبنا من أناس يحرصون على الخضرة والظلال.. ثم يسمحون فى رحابها أن تجف القلوب.. أن تيْبسَ الأرواح.. بممارسات كاذبة خاطئة..

إنه لا قيمة للمشهد الجميل الظليل.. إذا كان الظاهر رواءً.. والباطنُ خواء..

وهذا هو منهج الاسلام الحنيف.. والحريصُ على أن تظل الأرض مخضرة.. ولكن: قبل هذا.. وفوق هذا.. أن تظل القلوب أيضا.. مخضرة بجميل العواطف.. معطرة بأريج الإيمان..

فإذا نزغها من الشيطان نزغ فأخْطأت يوما.. كان عليها أن تسارع إلى الاستغفار.. تطهيرا لهذا القلب المعَنَّى بالمعصية.. وفرارا من آصار العفن الذى تُخلفه المعصية فى كيان الإنسان..

وتلك كانت قضية أسلافنا الأولى وهى: الفرارُ من الذنب..

وهذا واحد من الأوابين يعلمنا كيف.. نتحرك.. كيف نفزع إلى الله تعالى.. راغبين فى غفرانه بعد عصيانه. قال: اللهم. كيف أحب نفسى.. وقد عصيْتك.. وكيف أكرهُها.. وقد عرَفَتْك..

اللهم: كما هربَتْ منى بالمعصية.. فردها إلىّ بالعفو!

إن الرجل الذى أسرف على نفسه هنا..

لا يقطع حبل الأمل فى عفو الله.. وها هو زاد فى دوامة التمزق من نفسه التى عَصت مَنْ عَرَفَته سبحانه. يلظُّ بالدعاء والرجاء.. أن يُعِزَّه الله تعالى بطاعته.. بعدما أذله نَفْسه بمعصيته.. وهو يدرك تماما أن من عصى الله تعالى فقد هان عليه سبحانه.. ولو عز عليه.. لعصمه الله!

إن رأس مال المسلم هو: الطاعة. وربحه هو: النوافل.. وخَسارته.. فى معصيته!

وإذا كان الأمر كذلك.. فلابد من وقفة مع النفس.. تناقشها الحساب حتى يتنامى رأس المال.. فرارا من المعصية التى تستنزفه. فإذا لم تكن هذه الوقفة الداعية كمثْل هذا المؤمن الأواب.. فماذا يحدث؟

إن المعصية سوف تَستدعى المعصية.. كَعِقابٍ معجلٌ من الله تعالى.. على ما يقول ابن القيم:

[كما اشتدت ملابسة العبد للذنوب.. أخْرَجَتْ من قلبه الغَيْرة على نفسه. وعلى أهله. وعموم الناس].

[وقد تضعفُ فى القلب.. حتى لا يَستقبحَ بعد ذلك القبيح: لا من نفسه ولا من غيره. فإذا وصل إلى هذا الحد: فقد دخل فى باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح.. بل يحسِّن الفواحش والظلم بغيره. فإذا وصل إلى هذا الحد: فقد دخل فى باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح.. بل يحسِّن الفواحش والظلم لغيره. ويزيِّنه له.. ويدعوه إليه. ويحثه عليه.. ويسعى له فى تحصيله..

ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنةُ حرام عليه.. وهذا يُدلّك على أن أصل الدين الغيره.

ومن لا غيْرة له.. لا دين له.

فالغيرة تحمى القلب.. فتحمى له الجوارح.. فتدفعُ السوءَ والفواحش..

وعدم الغيرة يُميت القلب.. فتموت له الجوارح].

وهكذا يعلمنا سلفنا الصالح فى قول أحدهم: [أنه كان يمشى فى الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجليه ومع ذلك. فقد زَلَقَت رجله وسقط واتسخت ثيابه فقام وهو يمشى وسط الوحل يبكى ويقول: هذا مثل العبد: لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها.. حتى يقع فى ذنب.. أو ذنبين.. فعندها يخوض فى الذنوب جميعا] ذلك.. بأن المعصية تُضْعف الارادة.. فيجف نبع الحياء.. ثم.. يصير الأمر على ما يقول المناطقة: اجتماع الخسَّتين:

أ - ضعف الإرادة..

ب - وجفاف نبع الحياء.. أو نبعُ الحياة.. فيمضى الإنسان على حل شعره لا يلوى على شىء.

وإذا لم تستح فاصنع ما شئت!..

ولن تَصْنَعَه عندئذ باختيارك.. وإنما هى جيوش الآثام تهجم عليك بَعد أن فَقَدْتَ فى نفسك روح المقاومة بالطاعة.. ولا ملجأ حينئذ إلا الله تعالى.. العاصِمُ من الفواحش:

اللهم: إن معصيتنا.. لا تضرك وإن رحمتك إيانا.. لا تنقصك فاغفر لنا ما لا يضرك..

وأعطنا ما لا ينقصك!!

لما حضر أبا هريرة الموت. جعل يبكى. فقيل له: ما يبكيك يا أبا هريرة؟!

فقال:

قلة الزاد. وبُعد المفازة. وعَقَبة هبوطها: الجنة.. أو النار..فانظر إلى الأواه. المنيب..لجواب فى دروب المدينة وراء رسول الله ﷺ .. يحفظ عنه.. ويأخذ منه تلك الثروة العلمية والعملية التى صان الله بها أمة الإسلام.. انظر إليه كيف يكون الختام: هذه الدموع الغزار يودع بها الحياة.. حياته تلك الحافلة بجلائل الأعمال.. ليتعلم من أمر هذا النفر الكريم أن وظيفتهم لم تكن فقط فعل الطاعات وإنما هو الخوف الشديد من زلات وهنات.. قد تكون هينات.. لكنها فى حس المتقين عظام.. تجعلهم فى نظر أنفسهم على خطر عظيم..

من أجل ذلك كانت المعصية عدوهم الأكبر الذى يتوقَّوْنه:

قيل لحاتم الأصم: ما تشتهى؟ قال: أشتهى عافية يومى إلى الليل..

فقيل له: أليست الأيام كلُّها عافية؟!! فقال: إن عافية يومى ألا أعصى الله فيه!

وهكذا قالوا: ما عيدُك الحق إلا حين يُغفرلك لا أن تَجُرَّ به مستكبرا حللك

لقد كان الأمل الأكبر فى حياتهم:

أولا: الزحزحة عن النار

ثانيا: دخول الجنة..

وقد يقال: فاز فلان بالصفقة الرابحة.. وفاز علانٌ بالمنْصب العالى..

ولكن الحق تعالى حَسَم القضية فخص بالنور فقط مَنْ نَالَ الدرجتين:

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران : ١٨٥

والآية الكريمة تقول﴿وسارعوا...﴾ تعين المسلم على نفسه، ليُزحْزِح عن النار.. بالمغفرة..ثم يرشح لدخول الجنة.. بالطاعة..

وإذا تقرر أن الاستغفار هو سبيل المذنبين إلى المغفرة.. الواصلة بهم إلى منتصف المسافة فى اتجاه الجنة..

إذا تقرر ذلك.. فقد وجب على هؤلاء المذنبين أن يستعدوا ليصلوا..

ولقد كان من رحمة الله تعالى بعباده الخطائين.. أن أعانهم على المضى قُدما..

قال ابن القيم رحمه الله:

[لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها فى الدنيا.. فإن لم تَفِ بِطهرهم.. طُهِّروا فى نهر الجحيم يوم القيامة:

النهر الأول: نهر التوبة النصوح.

النهر الثانى: نهر الحسنات المستغرقة للأوزار:

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾

النهر الثالث: نهر المصائب العظيمة المكفِّرة.. فإذا أراد الله بعبده خيرا.. أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة..فورد يوم القيامة طيبا طاهرا.. فلم يَحْتجْ إلى النهر الرابع]

وفرارا من هذا النهر الرابع:نهر الجحيم، على حد تعبير ابن القيم رحمه الله.. كانت الآخرة بما فيها من حساب تملأ وعى المسلم.. الذى كان يعمل لدنياه.. وفى نفس الوقت يستعد لآخرته..

سأل الصديق صديقه يوما فى جلسة مباركة:

كيف أنت والأمل فى الدنيا؟

ما هو موقعك من الآخرة؟ فقال:

لقد بلغ من إحساسى بقصر الأمل أنى: لو رفعت اللقمة إلى فمى.. لا أدرى.. هل آكلها أم لا!

وكأنما أزعجت زميله تلك المسافة بين صديقه والآخرة.. على قصرها.. فقال

له: ولكنى إذا خرج النَّفس منى.. لا أدرى هل يرجع إلىّ أم لا؟!!

لقد كانت الآخرة تعيش فى وجدانهم.. بل كانت تعشش فيه..

وذلك مفهوم من قوله تعالى قبل هذه الآية المباركة:

﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.
آل عمران: ١٣١، ١٣٢

فاتقاء النار بالاستغفار.. لتكون المغفرة.. ثم.. بالطاعة.. طاعة الله تعالى ورسوله.. لتكون الرحمة.. فوزاً بالجنة..

وإذا وَعَد الكريم فإنه لن يُخلف وعده.. ويبقى أن يفى المسلم بعهد الإيمان.

فلا تَغرنك الدنيا وزينتُها

وانظر إلى فعلها فى الأهل والوطن

وانظر إلى مَنْ حَوَى الدنيا بأجمعها

هل راح منها بغير القطن والكفن

خذ القناعة من دنياك وارض بها

لو لم يكن لك إلا راحة البدن

يا نفسُ كفى عن العصيان واكتسبى

فعلا حميدا لعل الله يرحمنى

استنجد أهل الدار بصديق العمر. . ليحضر ومعه الطبيب المداوى. . لعله بإذن الله أن ينقذ صديقه الذى سقط مغشيا عليه. .

ووصل الحبيب. . والطبيب. . ليجد رفيق العمر. . يغالب سكرات الموت. . فغلبته سكرات الموت!

ووقف الصديق المنقذ. . واعظا. . يخفف من هول الصدمة بكلمات رطاب. . لعلها أن تهدئ الأعصاب المتوترة. . ولكنه سقط. . إلى جانب صديقه المسجى. . وبعده بلحظات يسقط. . ولم يقم. . ورحل الاثنان عن الدنيا. . معا. . وغشى الناس من العجب ما غشى. .

وقلت فى نفسى: العجب. من هذا العجب!! ذلك بأن الموت أقرب إلينا من حبل الوريد. . لكن الغفلة تنسينا هذه الحقيقة فنضرب كفا بكف. . إذا نزل بساحتنا فجأة. . وبلا استئذان من مرض. . أو حادث. . لأننا نسير فى اتجاه الدنيا. . مستدبرين الآخرة. . وكأنما الموت قد كتب على غيرنا. .

والمفروض أن نفرد الشراع. . وفى كل لحظة. . فى عملية إبحار إلى الله تعالى مسرعين إليه. . منيبين؟

وقد يكون للرجل ماض شريفٌ عفيف. .

وقد تكون له قدمُ صدق فى خدمة الإسلام . . لكنه مِنْ فرط حساسيته لا يأمن مكر الله.

وهذا هو الصدِّيق . . . الذى: لو وُزن إيمان الأمة بإيمانه لرجح . . هذا هو ذا يقول: لا آمن مكرَ الله . . ولو كانت إحدى قدميّ فى الجنة. .

وكان رفيقه على الطريق . .عمر رضى الله عنه رائدا من رواد المدرسة نفسها قال يوما: والله. .لو نادى مناد من السماء. . كلُّ الناس يدخل الجنة إلا واحدا. . لخشيت أن أكون ذلك الواحد!!

يقول أبو بكر ويقول عمر . . . يقولان هذا . . مع أنهما بشَرا بالجنة . . من

الصادق الأمين ﷺ . . .

وعلى ذات الطريق. . نرى أمير الجود: عبدَ الرحمن بن عَوف رضى الله عنه:

فمع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة . . وأحد الستَّة أصحاب الشورى . . والذى جعل عمر الخلافة فيهم . . رغم هذا . . فقد شوهِد حين حضرته الوفاة يبكى بكاء شديدا . . تكاد أن تخنقه العبرات. .

فلما سئل عن سر بكائه قال:

إن مصعب بن عمير . . كان خيرا منى: تُوفِّى على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له ما يُكفَّن فيه. وإن حمزة بن عبد المطلب كان خيرا منى. . تُوفى على عهد رسول الله ﷺ . . ولم يَجِد له كفنا. . وإنى أخشى أن أكون ممن عُجِّلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا. . وأخاف أن أُحْبَس عن أصحابى . . لكثرة مالى!؟

هؤلاء هم المسارعون إلى المغفرة . . وإلى الجنة . . مسارعون . . لكنهم خائفون وجلون . . يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون.

ويبقى أن يَصْحُوَ النوَّام . . على مسيرة هؤلاء العظام . . وعلى صوت أبى العتاهية القائل:

وما هذه الأيام إلا صحائفٌ　　يُؤرَّخ فيها ثم تمحى وتمحق

ولم أر فى دهرى كدائرة المنى:　　تُوَسِّعها الآمال . . والعمر ضيق

فى سعينا اللاغب على الطريق . . ماذا نريد؟

يُجيبك الواقع على لسان الحكماء قائلا: إن الجماهير الغفيرة من البشر. . .تبحث عن الأغنى . . لا عن الأسعد. . تطلب الأجمل . . وتُهمل الأكمل. .تبحث عن الذى يملأ الجيوب . . لاعن الذى يعمر القلوب!

إنه إذن سباق الفئران المذعورة . . كما يقول البصراء. . إنها المسارعة . . لا إلى الجنة . . وإنما إلى سيادة القِيَم المادية العفنة. .

ثم ماذا بعد هذا السباق المجنون؟

لا شىء . . لا شىء إلا القلقُ . . والتمزق. . وتلك هى جائزة السباق الأرعن.

ومن فضل الله تعالى علينا أن يكون سبحانه معنا على الطريق برحمته . . بمثل هذا النِّداء الحكيم: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾** آل عمران : ١٣٣

إن الجنة مُعَدَّة هناك . . مُهيأة لاستقبالك . . تناديك أن أسرع إليها. . إلى الحجاز فهذا منتهى أملى فخذ طريقك فى الصحراء يا جملى

ثم من رحمته تعالى أيضا . . أن يُعِدَّك؛ أنت لتكون أهلا لها. .

بمثل هذا التحريض: **﴿لعلكم تتقون﴾**

إن حرف الترجى «لعل» . . يثير فيك الحماس . . لتنهض . . وتحاول فلعلك أن تصل إلى مبتغاك . .

ولم يبق إلا إجابةُ الداعى قال بعض الزهاد:

[أما علمت أن أحدا سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يُطيع الله فيها بذكرٍ أو صلاةٍ أو إحسان.

فقال له رجل: إنى أُكثر البكاء!... فقال له: لأَنْ تضحك وأنت مُقِرٌّ بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت فخور بعملك.

فقال: أوصنى ... قال: دع الدنيا لأهلها . كما تَرَكوا الآخرة لأهلها

وكن فى الدنيا كالنحلة:

إن أكلت أكلت طيبا .. وإن أطعَمت أطعمت طيبا.

وإن سقطت على شىء .. لم تكسره .. ولم تخدشه

وإنها لوصية آخذة بناصية المسلم إلى الجنة لو قال.. فَعَمِل .. وعَمِل فأخلص..

إن الداء .. كما قال الرّبيِّع - هو الذنوب .. والدواء هو: الاستغفار.. والشفاء هو أن تتوب ثم لا تعود .. فى عزمة صادقة تستدبر بها الدنيا آخذا طريقك إلى الآخرة..

ولا يكفى البكاء .. بينما أنت جامد فى مكانك لا تتحرك إلى أمام ..

بكى رجل بكاء حارا .. لما سمع من يقول: إن الله سبحانه يستحيى من عبده المؤمن.. فقيل له: لِمَ تبكى وهذه بشارة . قال:

الله تعالى وهو الجبار. القادر يستحيى منِّى .. وأنا الضعيف الهزيل أجرؤ على عصيانه؟!!

وما زال على الطريق حداةٌ يستحثون الخطى الوانية.. لتمضى إلى جنة عالية.. ومن أقوالهم.

يا أبناء العشرين: كم مات من أقرانكم .. وتخلفتم

يا أبناء الثلاثين: يوشك الشباب أن يُوَلى .. فما تنبَّهتم..

با أبناء الأربعين: ذهب الصِّبا .. وأنتم على اللهو قد عكفْتم..

يا أبناء الخمسين: تنصَّفتم المائة.. وما أنصفْتم..

يا أبناء الستين: أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم. أتَلهُون .. وتلعبون؟ ..

أما أبناء السبعين . . فينوب عنهم عُمرُ الأميرى حين يقول

وإنى والسبعون تلوِى أعنّتى أعيش كينبوعٍ حَبِيسٍ بلا مجرى
بمنعزَل . . هَدَرُ المحيط يلفُّه وشواطئه صخر . . وقد أشبَهَ الصخرا
وحيدًا مع الذكرى . . أُكابد غُربتى وتَنْثُرنى نثرا وأَنْظِمها شعرا

ألا . . ما أجل العبر . . وما أكثرها . . ولكن أين المعتبرون؟

خليلىّ: كَمْ من مَيِّتٍ قد حضرتهُ ولكننى لم أنتفع بحضورى
وكم من ليالٍ قد أرتنى عجائبا لهن . . وأيام خلت وشهور
وكم من سنين قد طوتنى كثيرةٍ وكم من أمور قد جَرَتْ بأمور
ومَنْ لم يزده السن ما عاش عِبرةً فذاك الذى لا يستنير بنور

*****

همم .. ترمى إلى جنات عدن

كانت هناك همم كبار تحركت مسرعة إلى جنةُ عرضها السموات والأرض مُضحيةً ببعض مظاهر الدنيا . . فى سبيل هذا المطلب الأسنى:

فى حرب الروم مع المسلمين. على أرض الشام . . اقترب واحد من الجنود. . اقترب من القائد المسلم: أبى عبيدة بن الجراح وقال له: إنى قد عزمت على الشهادة . . فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟ أتلَقُها له حين ألقاه؟!

فقال له أبو عبيدة رضى الله عنه: نعم . . قل له: يا رسول الله: لقد وجدنا ربنا حقا.

وعندئذ. . انطلق الرجل بسيفه . . فقاتل حتى استشهد. وكان بالشهادة فى الخالدين. حدث هذا . . وطبول الجهاد تدق. .

فإذا كان فى السِّلم رِضَى من الحياة بالكفاف . . حتى إذا نزلت الآية الكريمة تُحض على الصدقة انطلق مقاتلُ الأمس. . انطلق - وبلغة عصرنا - إلى المحطة ليكون حمّالا . . شيّالا. حتى يتمكن من التصدق امتثالا لأمر الله. .

وقد يَعْرِض الصدقة على صديق له من رفاق السلاح . . فيعتذر عن قبولها قائلا: لو أتيتنى بالأمس . . لقبلتُها . . لكنى عملت اليوم . . وكسبت!

ولم يكن ذلك التنافس الشريف . . حالات فردية . . وإنما كان ظاهرة أكدها الصحابى القائل: «كنا نحامل» يقولها . . بلا حساسية كاذبة خاطئة!

وإنما هو العمل الشريف. . تُقبل عليه نفوس شريفة يهون عليها اليوم أن تختطّ لنفسها طريقا إلى الجنة. . . بمَالها. . بحياتها.

ومن الصور المشْرِقة هنا . . والتى تُمثِّل مسارعة المسلمين إلى الجنات ما روى أنه فى غزوة الأحزاب . . حدث ما يلى:

برز الطاغية «عمرو بن ود» . . ثم قال للرسول ﷺ: لقد اشتقتُ إلى النار التى وعدتنى فهل عندك من يشتاق إلى الجنة؟!

وحركت الكلمة الساخرة الماكرة شجون على رضى الله عنه. . . فنهض. .

أنهضه الشوق العارم إلى الجنة . . فاستأذن الرسولَ ﷺ . . فلم يأذن له. ثم استأذن للمرة الثانية . . فلم يأذن له. ثم أذن له ﷺ فى الثالثة . .

وهكذا . . يتيح ﷺ للراغب فى أداء الدور الصعب أن يراجع نفسه. . يراجع مدى قدرته على أدائه. . والمراجعة اليوم . . خير من التراجع غدا!!

وتُشْعِل المراجعة جذوة الأشواق فى فؤاد الفتى المسلم . . ليبلغ من الشوق ذروته . . وعندئذ يبلغ الكتاب أجله . . ليجد نفسه وجها لوجه . . أمام الطاغية. . «عمرو بن ود» . . وفى حوار تنتصر فيه إرادة الإيمان على فورة الطغيان!

قال له «عمرو بن ود»:

استصغروك . . فأرسلوك طُعْمة لسيفى!!

ويرد علىّ وعلى الفور قائلا: بل أرسلونى . . لأنى أقلهم شأنا. . (يعنى لست بالرجل المهم . . لينذُبوا لك بطلا)؟!

وتأمل هذه المبارزة الإعلامية والتى دحر فيها الإعلام الإسلامى الأبىُّ منطق الإعلام المادى الغوىّ . . والذى كان من مظاهر اندحاره:

أن لجأ إلى التلطف والتودد وذلك قول «عمرو» لعلّى: قد كنت صديقا لوالدك . . ولا أريد أن أفجعه فيك!!

ويرفض الإباء ذلك الاستجداء قائلا: ولكنك عدو الله . . وأريد قتلك!!

إن أسلوب المساومة والملاينة لا يُجدى مع فتى قضيتُه الأولى والأخيرة هى: الحق . . ولا يُهمه إن كان أبوه فُجع . . أم لا . . وإلا فقد فجعه من قبل حين انخلع من طاعته وأعلن إسلامه صغيرا لم يطرّ شاربه!

ولقد فرض علىٌّ شروطه على الطاغية:

أن يقول لا إله إلا الله . . أو أن ينسحب مع قواته . . فرفض قائلا: أخشى أن يقولوا: ضحك عليه صبى صغير. .

ولم تبق بعد الاثنتين إلا الثالثة وهى:

أن أقاتلك.. وأنت على فرسك.. وأنا على الأرض!

وهكذا المسلم أمام أعدائه: فيه من الإباء ما يفتت الحجر.. ومن العناد ما يكفى كل البشر.. وفيه من الصمود.. ما يحتاج به الخطر ولم يبق: إمام الطاغية خيار..

وحانت ساعة الصفر.. عندما انقض عليه الصقر المسلم فقطع رجله.. فحملها.. وقذفها..

وسمع الصحابة تكبير علىّ رضى الله عنه.. والذى حمل رأس عمرو إلى رسول الله ﷺ .. على سيف رسول الله.. والذى كان أعطاه له داعيا.. وانطفأت الروح فى البدن النجس.. وذهب غير مأسوف عليه وهكذا يأخذ المسلم سبيله مسارعا إلى جنة عرضها السموات والأرض.. حين أغمد سيفه فى قلب هذا الطاغية.

ألا إن سيف الاسلام هو ذلك الذى نقطف به رأس الغوى.. ولا نؤذى به التقى!! ولا الذمى!؟

أما بعد

فلا سيف إلا ذو الفقار..

ولا فتى إلا علىّ!!

﴿وسارعوا...﴾

إذا حُفَّت النار بالشهوات.. فقد حفت الجنة بالمكاره.. وكان حقا على المسلم أنْ يؤهل ليكون قادرا على اقتحام هذه العقبات ليصل إلى رضوان الله تعالى..

الشيطان.. والدنيا..

قال ﷺ[1]:

« إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقه: فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسلِمُ..؟! وتذرُ دين آبائك.. وآباءِ آبائك؟!. فعصاه. فأسلم.

ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر..؟! وتدع أرضك وسماءك؟.. فعصاه. فَهَاجَر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد.. فَتُقاتل.. فتُقْتَلَ.. فتنكحَ المرأة.. ويُقسَمَ المال؟! فعصاه.. فجاهد.

فمن فعل ذلك.. كان حقا على الله أن يدخله الجنة. ومن قُتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة. ومن غَرَق كان حقا على الله أن يدخله الجنة. وإن وقَصَتْه دابته. كان حقا على الله أن يدخله الجنة».

ولاحِظ من كيد الشيطان أن يهز فى الإنسان غرائزه.. التى يُثيرها بما يوسوس به من مخاوف:

هذه المخاوف التى يلوِّح بها تلويحَ الخبير الذى يتدرج بالمسلم صاعدا.. وفى النهاية يحاول أن يضرب على الوتر.. وتر الضحِية.. وبشدة.. فلعله أن يُجهز عليها!

فهو يهز فيه أولا غريزة انتمائه إلى قبيلته التى كان يَتبعها معصوب العينين لا

(١) النسائى كتاب الجهاد.

يسألها عما تفعل برهانا . .

وهو ثانيا يهز فيه غريزه حب الوطن حتى لا يهاجر . .

ثم هو أخيراً يدغدغ فى كيانه مجموعة من الغرائز هى: غريزة الجنس . . والأبوة . . والتملك . . ولكن المسلم الحذر . أفلت من شباكه كلها . . ذاهبا إلى رضوان الله .

ولم تكد سعادتنا تتم بهذا الانعتاق من كيد الشيطان حتى نُفَاجأ بنفر من المخلَّفين على الطريق . . والذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . . فقعدت بهم أما نيهم . فى عُرض الطريق . .

قال الإمام مجاهد رحمه الله: «يؤتى بثلاثة نفر يوم القيامة: بالغنىِّ . وبالمريض . . وبالعبد . فيقول الله تعالى للغَنىِّ: ما منعك من عبادتى؟ فيقول: أكثرتَ لى من المال فطغَيْت .

فيؤتى بسليمان عليه السلام فى مُلكه . فيقال للغنىِّ: كنتَ أشدَّ شغلا أم هذا؟ فيقول . بل هذا . فيقول الله عزوجل: إن هذا لم يمنعه شغلُه عن عبادتى . ثم يؤتى بالمريض فيقال له: ما منعك عن عبادتى . . فيقول: أشْغَلْت علىّ جسدى . .

فيؤتى بأيوب عليه السلام فى ضُرِّه . . فيقول الله له: أنت . . أكنت أشد ضرا أم هذا؟ فيقول: لا . . بل هذا . . فيقول الله له فإن هذا لم يمنعه ضُرّه عن عبادتى .

ثم يؤتى بالعبد . . فيقول الله له: ما منعك عن عبادتى؟ فيقول: جعلت علىّ أربابا يملكوننى .

فيؤتى بيوسف عليه السلام فى عبوديته فيقال له: أكنتَ أشدَّ عبودية من هذا؟ . . فيقول : لا . . يارب!!

فيقول الله عزوجل: فإن هذا لم يمنعه شئ عن عبادتى»

ويا لها من رحمة واسعة: رحمة يتلطف بها الخالق بالمخلُوق . . الرازقُ بالمرزوق! حين يَدخل مع عبده فى حوار . . مع أنه الخطاء . .

وهو حوار هادئ . . هادف . . يحاول فيه المتَّهم الدفاعَ عن نفسه . . بحرية كاملة

فإذا وُوجه بالدليل القاطع. . اعترف بالحق. . بلا مراء. بل وفى صحبة زدَم يعتصره اعتصارا.

ولم يكن ذلك الاعترافُ بعدَ خُطبة بليغة تُدينه. . وإنما هى المواجهة بالنموذج. . بالقدوة التى تؤكد. . أن الغِنى . . وأن الابتلاء. . فى ذاتهمَا ليسا سببا فى الانحراف. .

وإلا فهذه نماذج للغنى. . والبلاء. . لكنها لم تنس فى غمرة النعمة. وفى دوامة البلاء. . لم تنس واجبها. .

وإذن . . .فنحن نعيب زماننا. . والعيب فينا. .وما دام العيب فينا. . كما يفيد هذا الحوار. . فلنحاول أن نتخلص منه بدل أن نعلِّق عيوبنا على شماعة الآخرين. .

* * * * *

من مقومات الحضارة الإسلامية

﴿الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[آل عمران : ١٣٤]

تمهيد:

من المقوِّمات الضرورية للأمة: الاستقلال والسيادة على أرضها. . والحرية. . والأمن.

والسبيل إلى تحقق ذلك هو: الإيمان. والعمل الصالح.

وكيف؟

أما فيما يتعلق باستقلال الأمة: فذلك لا يتم إلا: بترْكِ البخل. . ثم بالبذلِ فى سبيل حماية النفس والوطن. .

ولا يتم ذلك إلا بالإيمان العميق الوثيق: لأن الإيمان يقول للسخى:

أَنفِق ولا تخش من ذى العرش إقلالا. . وما أنفقته مخلوف عليك. . سوف تحصل عليه غدا. . فى اليوم الآخر. . ومن ثم يبسط المسلم يده بالعطاء. . سرا وعلانية. . ليصير على ما قيل: السخىّ: لا تؤدِّبه التجارب : أما بالنسبة للحرية:

فإن الأمة المستمسكة بعروة الإيمان الوثقى. . ثم بما ترتب على الإيمان من العمل الصالح . . هذه الأمة ممنوعة من أنْ يُذلَّها الآخرون . . بما تملك من إباءٍ من صنع الإيمان. . ومن غناء بما تقوم به من عمل صالح.

وسوف يكون تحقيق الأمن ثمرة ذلك كله: لأن استحضار عظمة الله تعالى فى القلب مانع من الظلم. . فيكون العدل. .

وبالعدل . . يكون الأمن

والآية الكريمة دعوة إلى أن تتسلح أمة الإسلام بمقومات الحياة. . واستمرارها. . وأولاها: الإنفاق. . والإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى. . الإنفاق

الذى يصير فى قلب المسلم عاطفة سائدة تمارس نشاطها فى السراء والضراء. على ما يقول الرازى:

[.. أن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سَرَّهُم.. بأن كان على وَفق طبعهم.. أو ساءَهم.. بأن كان على خلاف طبعهم.. فإنهم لا يتركونه..

وإنما افتتح الله تعالى بذكر الإنفاق .. لأنه طاعة شاقة.. ولأنه كان فى ذلك الوقت أشرف الطاعات.. لأجْل الحاجة إليه فى مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين] .أ.هـ وهذا هو الطريق الواصل بالمسلم إلى الجنة دون سواه على ما يقول ابن كثير هنا:

[ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء**﴾ يعنى: فى الشدة والرخاء. والمنشط والمكره. والصحة والمرض.. وفى جميع الأحوال . كما قال تعالى: ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية**﴾ والمعنى: أنه لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى. والإنفاق فى مراضيه والإحسان إلى خلقه: من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر]

ويعنى ذلك: أنهم يحسنون التعامل مع المجتمع الذى يعيشون فيه بحيث يُنحُّون رغباتِهم الشخصية.. ويرتفعون فوق مطامعهم الذاتية.. ليكون الولاء لمصلحة ذلك المجتمع.. والذى لا يقدمون إليه الأقوال.. وإنما الأعمال.. والأعمال فى أشق صورها..

وتلك سمة من سمات المجتمع الاسلامى المتحضِّر.. والتى تجعله دائما أنبل مما يتصوره الكائدون للإسلام.. الظانون به ظن السَّوء..

هذه السمة التى تُزرى بكل مجتمع آخر لا يدين بالايمان.. محكوما بقيم المادة..

فبينما ترى المسلمَ يتحرك على الساحة.. مشدوداً إلى عُقدة الإيمان.. ملتزما بآدابه وقيمه.. مؤثرا فى الاستجابة لها: الفعل.. وليس الانفعال.. ترى على الجانب الآخر.. ترى: المادية.. فى الفكر. والنفعية.. فى الأخلاق والأنانية فى التعامل..

وفوق هذا المستوى الهابط.. يحلق المسلم فى الأجواء العالية.. بيده تلك العليا.. يدعوه إلى الإنفاق داعيان:

داع من المستقبل.. ابتغاء مرضاة الله تعالى

وداع من نفسه.. **﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾**

إنها السليقة المحكَمة.. فى داخله.. الحاكمةُ على خارجه..

*****

١ إلى الفردوس الأعلى

عن طريق الإنسان

كل إنسان يعبر عن نفسه:

فى نغم شجى.. أونحتا فى صخرة.. أو مقروءا فى كتاب.. أو مسموعا فى شريط..

ودون هؤلاء جميعا يظل المتقون أصدق تعبيرا عن أنفسهم وعن الحق بأعمالهم الجليلة النبيلة.. والتى يعايشون بها الحياة.. وهى من بعدهم أبقى من الحياة..

كل له غرض يسعى ليدركه.. والحرّ يجعل إدراك العلا قبلا

غاية المتقين

إن غاية المتقين هى: الجنة.. وهى سلعة الله تعالى..

وسلعة الله غالية.. ومن ثم شمروا عن ساعد الجد سعيا إليها..

ذلك بأنهم أكثر الناس إحسانا. وأقومهم ميزانا. وأدومهم غفرانا. وأوسعهم ميدانا.. إنهم إذن يبذلون الإحسان إلى الإنسان..

هذا الإنسان الذى كان فى حسهم رأس الرجاء الصالح.. والذى لا وصول إلى الجنة إلا به.. وعن طريقه.. وبمقدار الإحسان إليه..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران ١٣٣ـ ١٣٤ إن دينهم الإيثار.. يبذلون به المال طبعا لا تطبعا.. ويعنى ذلك: أنهم ينسَوْن.. أو يتناسَوْن غَريزة حب الذات.. مؤثرين غريزة بقاء النوع..

لقد نسُوا أنفسهم.. ثم ذكروا إخوة لهم فى الدين.. وفى الوطن..

وإذا كان حاضر الحياة كئيبا بما يضجُّ به من أثرة وأنانية.. فقد عايشوا بأرواحهم ذلك الماضى العظيم..

فكانوا كأهله أوفياء أسخياء.. صادرين فى وفائهم وسخائهم عن عاطفة حب.. حب الحياة والأحياء:

وما زلتُ أذكر الشيخ المهيب.. من شيوخ القربة: لقد كنت أراه وعلى شيبته مسحة من براءة الطفولة.. وهيبة العظماء.

وكان قلبه الكبير.. كأنه قد تناثر فى كل فجاج القرية.. مع النهر الجارى مع الشجرة المخضَّرة.. مع كل من فى القرية وما فيها.. إلى الحد الذى تحس فيه.. كأنما تَنبت القربة فى قلبه باشجارها.. وأطيارها.. وأنهارها.. إنها قطعة منه.. فهُو يحبها جميعا..

وحين أرى واحدا من أحفاده اليوم يملأ الدنيا بأناشيد التنويه بالإسلام فى حفل عام.. أقول لنفسى: لقد كان جدُّه.. الأمىُّ.. السخى.. أجدى على الإسلام.. بما أحبّ. وبما أنفق وبما أحيا من نفوس.. لا تشبع من الكلام وإنما تشبع بجود الكرام.

ثم هذا الخياط الذى لم تغلبه حرفته على نوازع الخير فيه.. فكان يمتنع عن أخذ الأجرة من الفتى.. الفقير.. وكنت أقول له:

خذ منه الأجرة مخفضةً. بسيطة.. وفرارا به من مشاعر الهوان إذا أحس بأنه محتاج.. مدين لك.. وزمان.. كان الرجل الطيب يرى المرأة المحتاجة تبيع الثوب يساوى مائة.. فيعطيها فيه ألفا.. حفاظا على كرامتها..

ولقد كنت أدخر المال.. فلا أعطيه للمحتاج الحيى.. فى رمضان.. حتى لا يحس بمعنى الصدقة.. وإنما أعطيه قبله أو بعده.. ليحس بمعنى الهدية..

تعلُّقا بِسِمة من سمات مدرسة المتقين.. الذين ينفقون.. ولا يمنون

﴿الذين ينفقون..﴾

سئل الفَضْل بن يحيى وزير الرشيد: ما خيرُ ما يفعل المرء إذا أَقْبَلتْ عليه الدنيا.. أو أدبَرَت؟ فقال:

خير ما يصنع أن يُنفق فى الحالين:

فالدنيا حالَ الإقبال: لا يُفنيها الانفاق.. وفى حال الإدبار: لا يُبقيها الإمساك

وهذا هو الفكر الإسلامى على مستوى القمة: أموالهم تتحرك على ساحة المجتمع إسعادا للفقير.. وتجديداً لمرافق الأمة.. منطلقين من إدراك عميق لسنن الله تعالى فى المجتمعات:

والتى يَرَوْنها.. ثم يَفْقَهُونها.. ثم يحسنُون التعامل معها.. بالعمل.. والعمل الجاد.. وإلا.. فالناس جميعا يعلمون فضل الإنفاق.. ثم لا تجد أكثرهم منفقين.. وإذن.. فلا يكفى معرفة الحلال..

وأهم من ذلك: إدراك مشكلات الأمة الاقتصادية والاجتماعية ثم محاولة اقتحامها.. فى محاولات مكرورة لإنقاذ الأمة من معاناتها.. والآية الكريمة ترسم هذا المستوى العالى للمتقين كما يجب أن يكون: فهم **﴿..ينفقون﴾**

والتعبير بالمضارع.. استحضار لصورتهم.. وهم ينفقون.. وكأنما نشاهدها الآن واقعةً.. فلعلها أن تؤثِّر بهذه الصيغة المعبرة..

ثم إن المفعول محذوف: فليس المهم: كم تنفق.. والأهم.. أن تتمكن من قلبك ملكة الإنفاق.. ولا يُهمنا بعد ذلك.. حجم النفقة المبذولة..

لا تُهمنا بعد أن يكون إدخال السرور على المسلم رغبة ملحة فى كيانك.. وما فاتك بعد ذلك شىء يبكى عليه!

ثم إن سمتهم أنهم ينفقون.. دَيْدَنُهم العطاء.. وإذا كانت الحضارة المادية

تقول: ليس مما يجعل الناس أغنياء ما يجمعون.. ولكن ما يدّخرون..

إذا كانوا هناك يقولون ذلك.. فإن للمتقين منطقا آخر: إن متعتهم الكبرى: أنهم: ينفقون.. ولا يدخرون.. على ما فى الادخار من فائدة!

ولو أنهم لم يجدوا يوما ما ينفقون.. ثم تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.. إذا ما حدث ذلك.. فإن الحق تعالى يكتب لهم ثواب ما تمنَّوا.. تماما كما يكتب تعالى لك وأنت مريض أو مسافر أجر ما كنت تعمله لو كنت صحيحا أو مسافرا.

إنها التقوى التى كانت ولا تزال نبْع السرور يشيع فى طبقات الأمة.. بما تحض عليه من مواساة.. ونجدة.. ومروءة. ألا وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد أداء الفرائض هى: إدخال السرور على المؤمن..

ومن هنا كان المتقون هم المتحضرين.. فهم فى العبادة خاشعون قانتون.. وهم على المستوى الاجتماعى: أكثر شعبية.. على ما قيل: عليك بصحبة التقى:

فإنه أيسر مؤونة.. وأكثر معونة!!

وإذا كان شرُّ الناس: من لا يعمل ما كُلِّفَ به.. ومن لا يعمل إلا ما كُلِّف به.. فإن خير الناس هم المتقون: لأنهم لا يكتفون بما يُؤمرون.. وإنما يبذلون.. وفوق ما يُكلَّفُون.

لقد كانت حركتهم.. مباركة.. لأنها منطلقة من: عقيدة الإيمان بالله تعالى.. الايمان الذى مَنَحهم الفهم العميق لطبيعة الدنيا: الدنيا التى هى كما قيل بحق: كطفلة صغيرة.. أطلت علينا. ثم ضحكت لنا.. ثم رحَلت عنا..

فما تكاد السعادة تُطل علينا.. حتى سمعْنا صفير الرحيل.. فلنستعد لهذا الرحيل.. بزاداه من التقوى.. لنحْصل أوّلا على رضاء ربنا..

ثم لنفرض احترامَنَا على الزمن.. فإن الزمان لا يحترم إلا من أدى دوره المرجوَّ منه.. وفى وقته الملائم..

وهكذا كان المتقون وإنهم لهم المتحضرون

تجيء الآية الكريمة.. مع سابقتها ولاحقتها بيانا لأقسام المتقين:

قسم إذا تورط فى الفاحشة هب مذعورا.. نادما.. عائدا إلى صف المؤمنين

ويمكن أن تكون الآيات بيانا لموقف المتقين.. الذين يتحملون مسئولية عزائم الأمور.. وإذ يخطئون فإنهم لا يصرون.. وسُرعان ما يعودون..

ولاحظ قبل هذه الآيات مباشرة قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾
لتدرك على الفور ما يلى:

أن الشيطان المريد.. بسلاح الربا يريد تخريب مرافق المجتمع.. وتلويث ذمة المسلمين.. وتقطيع الحبال الجامعة لهم.. ثم هو بالفاحشة يريد تخريب المسلم من الداخل حتى لا يصلح لعمل كريم..

ولا نجاة للأمة من كيده المبيّت إلا بمجموعة من الفضائل فى طليعتها: الإنفاقُ.. وكظم الغيظ.. والعفوُ.. طلبا للرقى إلى أفق الإحسان.. وتجاوز المستنقع الآسن والذى يريده الشيطان لنا..

وإذن فالمتقون هم طوق النجاة.. وطلائع الحضارة الإسلامية التى تريد عمارة هذه الدنيا.. سبيلا إلى جنة عرضها السموات والأرض

ألا وإن للشيطان جنوده النائبين عنه فى الإفساد.. وإنهم ليتسلحون بكل ما يمكن لهم فى أرضنا:

ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله.. ويكظمون غيظهم.. حتى لا يُحبطوا خطط تآمرهم..

وليس لنا من سبيل إلا أن نفىء إلى حِصْن التَّقوى.. ثم نواجههم بِعُدة المتقين بنفس السلاح وهى ما أشارت إليها الآيات الكريمة.. بذلا.. وضبطا للأعصاب.. وعفوا يغسل الله تعالى به الصدور وتلك هى المعركة الفاصلة التى يجب أن نستعد لها بما يكافئها: أخرج مسلم فى صحيحه [عن المستودر والقرشى

أنه قال: أن رجلا قال عند عمرو بن العاص:

تقوم الساعة والروم أكثر الناس. فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟! قال:

أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال عمرو: لئن قلت ذلك.. إن فيهم لخصالا أربعا:

لأحكم الناس عند فتنة. وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة. . وأوشكهم كرة بعد فرّة. وخيرهم لمسكين وضعيف.. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك[1].

وهذه الخصائص فى مجملها هى نفسها التى يتعبد بها المتقون كما ذكَرتْها الآيات الكريمة التى نحن بصدد التنوية بها. وقد تضُطر أحيانا.. وفى فترات من الزمان أن نقول آسفين: إن فى بلاد الغرب.. وفى نُظُمِها وتقاليدها.. إسلاما.. ولكن بلا مسلمين بينما فى بلاد الإسلام: مسلمون.. ولكن بلا إسلام!

فإذا شَمَّر أحداث اليوم مدافعين عن الإسلام بما يحفظون من نصُوص لا يفهمونها.. إذا فعلوا ذلك.. يَرُوعك : أن تسمع محامين فاشلين عن قضية عادلة!

فى الوقت الذى تسمع هناك محامين ناجحين.. مع أنهم يدافعُون عن قضية ظالمة؟!

لقد استعمرنا الرومان يوما.. من أجل قمحنا الوفير.. واحتلنا آخرون من أجل القطن المتميز.. ولكنّ أمتنا نجحت فى معركة التحدى.. وخرجت حرة.. عزيزة.. مستقلة، بيد أن المعركة ما زالت مستمره.. ولابد من خوضها.. وبنجاح.. ولكن: بقيم التقوى..

هذه القيم التى لا تعنى سُبحة الِفية.. تَعُد حباتها عدا.. بينما الأعداء يمكرون.. ويعملون.. وإنما تعنى: الحيوية.. والوعى.. والعمل الدائب ولنا فى عمر بن عبد العزيز أسوة حسنة.. هذا الذى أيد الله به الحق. ودوخ به أعداءه: بما كان يملك من خلق الإيثار: لقد ملك الأقطار فى آسيا وأفريقيا.. حتى لامس

---

(١) صحيح مسلم ج٤/ ٢٢٢٢.

تخوم أوروبا.. ثم أخذ من حُلىّ زوجته فاطمة والتى كانت قريبة لتسعة من الخلفاء.. أخذها ليضعها فى بيت المال.. إيثارا للأمة على نفسه.. هذه الفضيلة التى جرت فى دمه .. فكانت على الأمة خيرا وبركة.. بقدر ما أحبطت من كيد الأعداء.. فكان بإيثاره قدوة

تتقاضى كل مسؤول فى موقعه أن يسابق أعداءنا بعمله.. لا بنسبه.. وقد تدّعى أجهزةٌ ما تدعى.. إرادة التشويش علينا..

ولكن لا بأس:

قد ملأنا البرَّ من أشلائهم   فدعوهم يملأوا الدنيا كلاما!!

*****

تأخذ الأمة مكانها تحت الشمس. . برجالها. . ومارجالها إلا الذين يتجاوزون الهموم الصغيرة. . ليعلِّقوا هممهم بِهمٍّ الأمة الأكبر. . إرادة إسعادها. .

وعلى قدر مالَهُم من خلال الخير التى تزدان بها قلوبهم. . فإن حركتهم الاجتماعية البانية هى ثروتهم الكبرى. . وهؤلاء هم المتقون. . وإذ يتسابق المتسابقون نحو الثروة. . فإن المتقين لا تعنيهم إلا الفائدة العائدة على الأمة. . وإن حُرموا هم منها. . ومن ثم كان عطاؤهم نهرا جاريا. . لا يتوقف أبدا. .

وإذا استطاعت الشمس أن تُجفف مياه المحيط. . فإنها لن تستطيع أن تجفف ينابيع الخير فى قلوبهم.

ولذلك. . يحب الله المتقين. . المؤثرين على أنفسهم. . ولو كان بهم خصاصة. ومَنْ أحبه الله تعالى . . حبّب الناس فيه. .

إن الخلال الشخصية تحفظ حياتك. . وفقط. . أما الخلال الاجتماعية: فإنها تحفظ حياتك. . وحياة المجتمع من حولك. من أجل ذلك نرى الناس يُحبون رجل الاجتماع. . وإن نقصت لديه الخلال الشخصية. .

بل إنهم يفضلونه على رجل الخصوصيات. . وإن كان كامل الأخلاق. . لأنهم يستفيدون من الرجل الاجتماعى أكثر. .

ذلك الطراز الفريد: الذى «ينفق». . وليس فقط «يسخو». . ذلك بأن الإنفاق يعنى: أن ما أعطاه. . قد نفق. . كما ينفق الكائن. . بمعنى أنه أخرجه من جيبه. . ثم نسيه. . انقطعت صلته به. . ولماذا يسيل لعابه من وراء صدقته. . وهو الذى يعتقد أن الصدقة تقع فى يد الله تعالى قبل أن تقع فى يد الفقير. .

إنها إذن فى يد أمينة. . تتقبل العمل الطيب. . على رجاء مضاعفة ثوابه إلى ما شاء تعالى من أضعاف.

وإذا كان الشعار فى المجتمع المادى هو: أنا موجود.. بقدر ما أملك وما أستهلك.. فإن شعار المتقين هو: أنا موجود.. بقدر ما أعينُ أخى.. بقدر ما أنفق فى سبيل الله..

وإذا كان [من فقه الرجل أن يُصلح معيشته] [1] كما قال ﷺ فمن صميم هذا الإصلاح.. إصلاح مرافق الأمة بالإنفاق..

ويعنى ذلك أن يصير المتقى صورة مشرقة للإسلام.. لأنه يدُل بماله المكتسب على: الهمّة العالية. والعقل الوافر. والرأى الكامل.. وكما يقول العلماء:

يكفى الغِنى شرفا أنه اسم من أسماء الله تعالى.. والإسلام مع الغنى.. وليس مع الفقر.. مع العزة.. وليس مع الذله.. الغِنى الذى يصير به الإنفاق متعة فى حس المنفقين: المنفقين الذين لا يُهمهم زيادة الرصيد فى البنك.. بقدر ما يهمهم زيادة الرصيد فى القلوب.

حكى أن رجلا قال لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق: أحِب أن تقبل منى هذه الجُبة هدية منى. فقال له إبراهيم:

إن كنت غنيا.. قبلتُها منك.. وإن كنت فقيرا.. لم أقبلها منك.. قال الرجل : فإنى غنى..

قال إبراهيم: كم عندك؟ قال: ألفان.. فقال له ابن أدهم: أفيسرك أن تكون أربعة آلاف؟ وقال: نعم.

فقال له: أنت فقير... لا أقبلها.

إن الغِنَى الظاهر.. لم يمتد إلى الأعماق ليكون عيناً ثرة بالخير.. نزاعةً إلى الإنفاق.. وإن تراجع الرصيد.. وبهذا المقياس ما أكثر الفقراء.. فى مملكة الأغنياء!

إنه الفرق الهائل بين رجل يعيش لنفسه.. وآخر يعيش للناس.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده.

وفد على معاوية رضى الله عنه بدمشق: عبد الله وعبد الرحمن ولدا صفوان بن أمية . .

ومع أن عبد الرحمن هو ابن أخت معاوية . . لكنه قرَّب أخاه عبد الله دونه ولما أرسلت أخته ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان ـ تعاتبه أن قرَّب البعيد . . وبَعَّد القريب . . كان رده عليها عمليا . . حين عقد لهما امتحانا عسيرا:

لقد أذِنَ لابن أخته القريب «عبد الرحمن» أن يدخل عليه . ثم قال له: سل حوائجك!

فذكر دَيْنًا . . وعيالا . . فأعطاه . . وقضى حوائجه.

فلما أذن لعبد الله وقال له سل حوائجك . . قال: تُخرجُ العطاء . . وتُقرض المدينين . . وترفدُ الأرامل القواعد . . وتتفقد أحْلافِك الأحابيش!!

قال معاوية: أفْعَلُ ما قلت . . فهلم حوائجك!!

قال عبد الله بن صفوان: وأى حاجة لى غير هذا!! أنا أغْنَى قريش!!

ثم انصرف:

فقال معاوية لأخته: كيف رأيت؟!! ولقد رأتْ حقا أخوين: بينهما بُعْدُ المشرقين:

أما ابن أختها: عبدُ الرحمن . . فقد كان مهتما بنفسه وأهله . .

وأما عبد الله . . فهمومه . . على قدر همته . . همته المعلقة بالثريا . . بالمحتاجين . . والمَدِينين . . والعجزةِ والمعوَّقين . . وكان صمتها عندئذ أبلغ من الكلام!!

*****

ينفق المتقى مَالَه لأن الإنفاق حق. . لا لأنه كَرَم وسخاء

إنه الوفاء بعهد الإيمان الذى صان للفقير حقه . . وحقه المعلوم. . والذى يصير تكريما له . . قبل أن يكون كرما فى حس المنفقين . . من أجل ذلك . . كان هذا الفارق الهائل بين المتقى . . الذى ينفق ماله لله وهذا الذى يبذله رئاء الناس:

فالمتقى يعطى المال ابتداء . . عن سجية فيه غيرِ محدَثة. . إن الخلائق فاعلم شرها البدع. .

ومن يبتدع خُلُقا سوى خُلْقِ نفسه

يدعْهُ . . وترجعْه إليه الرواجعُ

وإذْ تنشُد أممُ الأرض السعادة والرخاء . . لكنها تضل السبيل . . أما المتقون فهم وحدهم: المهتدون . . الواصلون بالإيثار إلى جنة عرضها السموات. .

وإذا مدح الناس الكريم . . وإن كان سيئ الخلق . . فقد بقى المتقون على القمة بما استجمعوا من خصائص الكرم . . ومحاسِن الأخلاق . . فجمعوا بين الحسنيين.

وإذا تبارى الواجدون اليوم فأنفقوا فى الضراء . . أنفقوا الآلاف أنهارا فى الصحف ينعَوْن الأعزاء من الموتى . . فإن المتقين دونهم ينفقونها فى السراء: مشاركة وجدانية فى لحظات الفرح. .

ثم إنهم فى الضراء: لا يجاملون الأحياء . . بنشر التعازى. .وإنما يجاملون الأحبّاء . . من الفقراء . . صدقة عن الميت . . فيُوفون بعهد الصداقة . . بعد رحيل الأعزاء . . ثم يشترون فى نفس الوقت عِزهم فى الدنيا وكرامتهم فى الآخرة . . ويعنى ذلك أنهم جعلوا المال خادما . . لا مستخدِما!!

والأمر على ما يقول الشريف الرضى:

اشتر العز بما بيع فما العز بغالِ

ليس بالمغبون عقلا مشترٍ عزا بمال

إنما يُدَّخَر المال لحاجات الرجال

والفتى: من جعل الأموال أثمانَ المعالى

وهكذا .. كان المتقون لقد كان الخيار لديهم صعبا

فإما رصيد المال... وإما رصيد الكمال

بيد أنهم لم يترددوا فى اختيار رصيد الأخلاق .. متحملين مسئولية هذا الاختيار .. الذى وإن تركهم يوما بلا مال .. فيكفى ما حصّلوه من قيم الرجال..

ولله در القائل:

لئن تنقّلتُ من دار إلـــــى دار

وصِرتُ بعد ثُواءٍ رَهْنَ أسـفار

فالحرُّ حُرٌّ عزيزُ النفس حيث يُرى

والشمس فى كل بُرجٍ ذاتُ أنوار!!

وبهذا المقياس .. يصبح المتقون مرفأ النجاة .. فى الزمن الردىء..

والذى وصفه الشاعر قائلا..

إذا كان من يعطى فقيرا .. وذو الغنى

بخيلا .. فمن ذا يستعان من الدهر؟!

وإذا كان المتقون ناسا من الناس: يأكلون الطعام .. ويمشون فى الأسواق .. لكن الكسب عندهم ليس غاية .. وإنما هو وسيلة .. وهم على ما يقول ابن الجوزى:

[وأما المطاعم والمشارب والملابس والمناكح .. فهى داخلة فيما يُقيم الأبدان. ويحفظها من الفساد.

وفيما يعود ببقاء النوع الإنسانى .. وحفظِ النوع ليتحمَّلَ الأمانة التى عُرضت على السموات والأرض}. اهـ.

إن المال ـ كما قيل ـ: موجود فى الأسواق .. ولكن الجيوب هي التى تتبدَّل..

والفضيلة لا تأتى من المال .. ولكن المال هو الذى يأتى منها.. وإذا تبارت المؤسسات مُتَفَنِّنَةً فى تطوير صور الإعلام .. لتُغْوى الناس بشراءِ حتَّى ما لا يحتاجون إليه .. ليصيروا فقط مستهلكين .. أكثر من أن يكونوا منتجين..

إذا كان الأمر كذلك .. فإن المتقين يَظِلون بنجوة من هذا الشرك المنصوب .. راصدين أموالهم .. للخير .. فاتحين جيوبهم .. وقلوبهم علَى كل محتاج .. وتلك متعتهم الكبرى.. ومنهم عبد الله بنُ جعفر بنِ علىٍّ بنِ أبى طالب .. والذى قال:

أرى نفسى تتوق إلى أمـــورٍ

ويقصُر دون مَبْلَغِهن مالى

فلا والله ما أحببتْ مـــالاً

لشىء قط.. إلا للـــنوال

أُفيد ويستفيد الناس مـــنى

وما يبقى يصير إلى الزوال

أما بعد فإن الظمأ إلى المال .. أشد من الظمأ إلى الماء!

ومن أجل ذلك كان المال هو المحك .. الذى يظهر قيمة الرجال: فكان منهم الثرى.. ومنهم الغنى:

فالثرى: من يملك المال .. ولكنه لا يحسن التصرف فيه..أما الغنى: فهو من يملك المال .. وفوق ذلك يملك حسن تصريفه..

ولك أن تتصور الذين يبخلون .. ثم يأمرون الناس بالبخل .. لتدرك

الصورة القبيحة. .وليبدو لك جمال الغنى فى موقف هذا الغنى الكريم . . والذى عناه الشاعر بقوله:

تعوّد بسط الكف حتى لو أنــــه

دعاه لقبْضٍ . . لمْ تطعه أنامله

إذا لم يكن فى كفه غيرُ روحـه

لجادبها . . فليتق الله سائــــله

*****

يقولون: [إنما كانت الفضائل فضائل بالعمل بها .. لا بالعلم بها .. وماذا يفيد العلم بأن الصدق خير .. إذا لم يُعمل به؟!

وماذا يفيد التحدث عن فضيلة الإيثار وامتداحها والحض عليها من أعلى المنابر وأفخمها .. إذا لم تكن هذه الفضيلة مما يتبارى فيه مادحها والممدوحة له؟!

وأقدر أمم الأرض على العمل بالفضائل .. الأمة التى تعمل بها عن سجية متوارثة .. لا عن تكلف وتظاهر وتقليد][(1)].

وكذلك كان المتقون .. المنفقون المال: الذين ينفقونه عن طبيعة عربية أصيلة .. فلما صقلها الإسلام فاقت فى الجود كل ما كان فى الحسبان.

لقد جَمَعَتْ المال .. من حله .. ثم أنفَقَتْه فى مصارفة .. فكان المال فى يدها بركة ونماء ورخاء .. سعدت به الأمم.

إذا اكتسب المالَ الفتى من وجوهـه
وأحسن تدبيرا له حين يجمـع

وميَّزَ فى إنفاقه بين مصلـح
معيشتَه فيما يضر وينفـع

وأرضى به أهل الحقوق ولم يُضـع
به الذخر زادا للتى هى أنفـع

فذاك الفتى .. لا جامع المال ذاخرا
لأولاد سوءٍ حيث حلوا وأوضـعوا

وتلك كانت شريعة المتقين .. وفى نفس الوقت كانت مثار تساؤل من بعض الناس: كيف يحاول الطيبون .. والعلماء جمع المال بينما هم ليسوا من أهل الدنيا.

(1) محب الدين الخطيب مع الرعيل الأول ٢٠٨.

فقد قيل لابن أبى الزناد: لِمَ تحب الدراهم . . وهى تُدْنيك من الدنيا؟

قال: [هى وإن أدنتنى من الدنيا . . فقد صانتنى عنها]

أجل صانَتْه . . فلم يحمِل منَّة من لئيم . .

ولما قيل لبعض الحكماء: ما بالنا نَجِدُ من يطلب المال من العلماء أكثر ممن يَطْلُب العلم من ذوى المال . . قال: [لمعرفة العلماء بمنافع المال . . وجهل ذوى الأموال بمنافع العلم].

ولا يذهبنَّ بك الخيال لتتصور الإنفاق فى السراء والضراء . . تلك الرشفات التى لا تطفئ ظمأ . . أو تلك اللقيمات التى لا تُشبع جائعا . . وإنما هى العاطفة السائدة التى تنفق . . فِعْلا . . أو بالقوةِ . . . إن عزّ المال . .

والتى تحمل صاحبها على الإنفاق حتى بأغلى ما يملك . . بالحياة!

ذكروا أن فتيانا من فتيان بنى إياد قد خرجوا فى سياحة . . وكان على رأسهم كعب بن سيدهم عمر بن ثعلبة . وقد أوغلوا فى البادية حتى ضلوا الطريق . . ولم يكن معهم إلا قليل من الماء . . ولم تكن السياحة عندئذ لاهية . . ينطوى الفرد فيها على ما يُمتِّعُه . . وليكن من بعده الطوفان . . ولم يكن ابن السيِّد ليستأثر دونهم بما به يستبقى الحياة . . ومن ثم قرروا: أن يجمعوا ما فى أسقيتهم من الماء . . ثم اقتسموه على السوية . . وعلى مدى الطريق الطويل . . شربوا كل ما معهم من الماء . .

لكن القائد النزيه . . استبقى معه بقية من الماء . . لساعة الشدة إحساسا منه بأن مسئولية القيادة أن نكون للجند عونا . . وفى ساعة العسرة . .

وجاءت تلك الساعة فعلا . . حين لقيهم أعرابى . . فصحبهم . . وكان الأعرابى قد اشتد به الظمأ يومه هذا . فجعل ينظر فى سقاء الأمير الشاب . . وفيه تلك البقية من الماء . . وإن شئت قلت: تلك البقية من الحياة!

وهنا يظهر معنى الإنفاق فى الضراء: الإنفاق الذى لم يكن نهرا فى جريدة تنكب فيها دموع التماسيح على عزيز قوم ولَّى . .

وإنما كان الإنفاق . . إنفاق الحياة . . لإنقاذ حياة الآخرين وكما قيل [فآثر كعب ضيفه الأعرابى ببقية الماء . . ورضى لنفسه أن يواجه الموت ظمأ مضحيًا بالحياة حتى ولو كانت حياة أمير نبيل. وصاحب شرف أثيل].

[إنها ـ كما قيل بحق إنها فضيلة الإيثار:

التى تتحدث عنها الأمم جميعا . فى كتب الأخلاق والفضائل. وتعُدها من صفات الإنسانية الممتازة. ولكنها قلما تستطيع أن تضرب الأمثال العملية التاريخية على الاتصاف بها إلا فى توافه الأمور.

أما فى المواقف الجُلَّى . . وعندما يتناول الإيثار أفضل ما فى الحياة .

ـ ولو كان الحياة نفسها ـ فقلما نجد التاريخ يتحدث عن ذلك إلا بلغة العرب. . فى تاريخ العرب. عن رجال العرب. . الذين اختارهم الله تعالى لحمل أمانة الإسلام والتبشير برسالته]. وأولئك هم المؤمنون حقا.

*****

مروءة المتقين

وعزة الآخذين

عندما سئل الأعرابى يوما: لمن هذه الشاة؟ قال: هى لله عندى!!

إن فى كيان هذا الأعرابى غريزة التملك . . والتى تريد الإشباع . . ولكنه وعلى ضآلة ما يملك . . يتجاوز هذه الحاجة ليُردَّ الأمانة إلى أهلها . . إلى ربها سبحانه وتعالى . .

ولقد نجح الأعرابى الفقير فيما سقط فيه قارون . عندما قال فيما حكاه القرآن عنه:

﴿ إنما أوتيته على علم عندى﴾

ولو قال هو لله . . لكان لديه مهما أنفق رصيد يغذِّى حاجته ويُطفئ نهمته . . لكنه لم يفعل . . وفعلها الأعرابى البسيط الذى لم يقل: هى عندى . . لله ولكنه قال: هى لله . . عندى . . ليعمق معنى ملكية الله تعالى لها . . وليدل فى نفس الوقت على سر هذا الإنفاق . . من لدن المتقين . . سرا وعلانية . . وفى كل مناسبة . .

إنه الإحساس العميق بأنه خازن . . والله هو المعطى . . إنه مجرد قناة من قنوات الاتصال يُجرى الله بها الخير على يديه . .

وبهذا المفهوم . . احتفظ الإسلام للآخذ بكرامته . . حتى لا يستذلَّها السؤال وهذا ما تسجله مواقف الكرماء من أمتنا: لقد كان الغَنىُّ . . المتقى . . يمد يده للفقير بالعطاء . . ثم يقول له:

خذ . . لا لك . . أى: إنك أيها الفقير فقط سبب من أسباب قبولها . . لأننى ابتداء أعطى الله تعالى . . . والذى أمرنى بالإنفاق . . أنا لا أريد إذلالَك . . وإنما هو حقك . . يصل إليك تنفيذا لأمر ربى . . وربك سبحانه . .

وكان الفقير على مستوى الموقف حينئذ . . والذى كان يقول للغنى وهو يعطيه: هات . . لا منك!! يعنى: إنها من الله . . لا منك.

وهكذا كان المتقون يتعاملون . . وهكذا كانوا قبل ذلك يتاجرون . . ويعملون . . من أجل درهم يُسعدون به الآخرين . . كان المال فى أيديهم: ممرا. لا مستقرا . . لا يطلبونه لذاته . . وإنما لثمرته . .

على حد قول القائل:

وقائلة: ما العلم والحلم والحجـــا

وما الدين والدنيا فقلت: الدراهم!!

تُداوى جراح الفقر حتى تزيلـــــها . .

فما هى فى التحقيق إلا مراهـــم!!

لقد كان فى العشرة المبشرين بالجنة تسعةُ أغنياء . .

فما عابهم الغِنَى . . بل كان المالُ فى أيديهم نعمةَ مسداة . . ورحمة مهداة

وبهذا المال . . كانوا الصورة العملية للإسلام . .

قال لى الغنىّ المتقى يوما: أنا أسمع لك . . ثم أدعو لك . .

فقلت له: أنت تسمع إلى قولى . . بينما أنا أستمتع بعملك . . بإنفاقك فى وجوه الخير . . فأنت الذى يجعل لما يسمعُ الناس قيمة!

وإذا كنتُ أواجه الناس بالموعظة . . فأنت تنتشلهم من براثن العبودية بما تفعل . . لتجعل منهم أعضاءَ عاملين . . أعزاء كرماك . .

فالناس أتباعُ مَنْ دانت له النعم

والويل للمرء إن زلت به قــدم

المال عزٌّ. ومن قلَّت دراهمـــه

حتى كَمنْ مات إلا أنه صنـــم

مالى رأيت أخلائى كأنهمـــــو:

اثنان: منقبضٌ عنى . ومحتشـم

لمَّا رأيت الذى يُبدون قلت لهــم

أذنبت ذنبا؟؟ فقالوا ذنبُك الــعدم

أما بعد: فلقد قالوا:

ليس مما يجعل الناس أصحاء أقوياء .. ما يأكلون .. ولكن ما يهضمون .. وليس مما يجعل الناس أغنياء ما يربحون .. وإنما ما يدخرون - وباسم التقوى نقول نحن -: وإنما .. ما ينفقون .. لا ما يدخرون - وليس مما يجعل الناس علماء .. ما يقرءون .. وإنما ما يتذكرون وما يستوعبون ..

وليس مما يجعل الناس أصفياء أتقياء .. ما يدّعون وما يتظاهرون .. وإنما .. ما يعملون. .وكذلك كان المتقون..

ولمثل هذا فليعمل العاملون

*****

الشوق إلى الجنة بين الأقوال والأفعال

كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أسرع ما يكونون خطى إلى الجنة .. بالأفعال .. وليس بالأقوال.. بل بما يشق على النفس من الأفعال..

وفى مقدمتهم «أبو الدحداح» رضى الله عنه. والذى ما كاد يسمع قوله تعالى ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا..﴾ حتى أسرع إلى الرسول ﷺ قائلا له: يا رسول الله: وإن الله ليريد منا أن نُقرضه؟!

قال: «نعم يا أبا الدحداح».

فقال: أرنى يدك يا رسول الله. فناوله الرسول يده.. فقال له أبو الدحداح:

أشهد يا رسول الله: إنى قد أقرضت ربى حائطى [بستانى]

وكان له بستان فيه ستمائة نخلة.

وكان فى البستان زوجته «أم الدحداح» وأولاده يسكنونه.

ثم جاء إلى البستان.. فنادى زوجته: يا أم الدحداح .. قالت: لبيك..

قال: اخرجى أنت وأولادك .. فقد أقرضتُ ربى بستانى.

فقالت ربح البيع يا أبا الدحداح.. ثم خرجَتْ بصغارها.

*****

تمهيد:

كان ﷺ أعرف برجاله..

ومن معرفته بهم أنه كان يكلف كل واحد بما يحسنه من عمل .. وبما يطيقه أيضا.. فالدوافع مختلفة .. والأمزجة أيضا متباينة:

وقد يأمر واحدا بضرورة أن يكفر بما له عن ذنب ارتكبه..وقد يسمح لآخر من المذنبين الذين لا يجدون ما ينفقون .. يسمح له أن يطعم عياله .. مما وجب عليه من كفارة جاءته من خزينة الدولة.. ولا يعطيها الفقراء. وربما راعى ﷺ ما بين الصحابة من الفروق الفردية .. بدليل أنه لما تصدق ثابت بين قيس بخمسين نخلة قال له ﷺ :لا .. أعط .. ولا تسرف..

لكن .. أبا الدحداح .. الأنصارى .. يتصدق ببستان فيه ستُّمائة نخلة ثم يباركُ ﷺ ما فعل!

لقد كان أبو الدحداح: أولا: أنصاريا .. واحدا من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وثانيا: كان واحدا من نجباء المدرسة المحمدية الرائدة .. والذين رباهم ﷺ على الانتصار أولا على النفس .. على ما يقول صفيه عليّ رضى الله عنه:

ميدانكم الأول: أنفُسكم.. فإن قدرتم عليها .. كنتم على غيْرها أقدر..وإن خُذِلتم فيها .. كنتم عن غيرها أعجز..فجربوا .. معها الكفاح أولا..

وقد خاض أبو الدحداح معركته مع النفس .. فقَبضَ على ناصيتها .. ثم تفرد بالأمر والنهى فكان السيد المطاع..وعلى ضخامة البستان .. وما فيه من سكن .. ونخيل .. إلا أنك لَتُحسّ بشىء أكبرَ من هذا وهو:

تلك العاطفة الإيمانية التى لم تكد تسمع عن الإحسان حتى هُرعت إليه .. وبلا تردد .. فكانت هذه العاطفة أغلى من الصدقة نفسها .. على ما يقول المنفلوطى.

[ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس . .

فالعطاء قد يكون نفاقا ورياء.

وقد يكون أحبولة ينصبها المعطى لاصطياد النفوس والأعناق.

وقد يكون رأسَ مال يتَّجر فيه صاحبه ليبذل قليلا ويربح كثيرا . . إنما الإحسان عاطفة كريمة . من عواطف النفس : تتألم لمناظر البؤس . . ومصارع الشقاء].

ومع كون الإحسان وليد عاطفة نبيلة . . إلا أنه إلى جانب ذلك وليدُ ذكاء . . يجعل من السخاء قضية بَدَهية . . يقف بصاحبه مع الناس . . ودائما:

إن كانوا مرضى . . عادهم وإن كانوا مشاغيل . . أعانهم وإذا نشوا . . ذكّرهم منطلقا من مسلَّمات عقليه تجعل من السخاء شرعة ومنهاجا:

قال الحسن بن على لابنه وهو يعظه: [يا بنى: لا تُخْلف من ورائك شيئا من الدنيا:

فإنك تُخلفه على رجلين: رجلٍ عمل بطاعة الله. فسعد بما شقيت به. ورجل عمل بمعصيته . . فكنت عونا له على ذلك . وليس أحد هذين بحقيق أن تؤثره على نفسك].

وإذ يبدو «أبو الدحداح» متألقا . . من خلال هذا المشهد النبيل . . إلا أن الزوجة هنا لا تقل عنه نبلا:

فلم تكد تسمع الأمر حتى نفَّذته . . بل ورحَّبت به مع أنه على حساب صغارها وهم أعزاؤها: ثم إنها لم تقحم فى القضية أباها . . ولا أمها . .

لقد كان الزوج سيد البيت . . فكان الوفاق . . هذا الوفاق . . الذى يحل محله الشقاق . . حين يستنوق الجمل . . وعبثا . . تنشد السعادة ولكن بلا أمل!!

*****

عندما تؤثر الآية الكريمة التعبير عن سخاء المتقين بالفعل المضارع «ينفقون..» فإنما تُرى المسلم عملية الإنفاق المتجددة .. من قِبَل المتقى .. فكلما دعاه إلى البذل داع.. كان أسرع ما يكون إليه ..وها أَنْتَ ذَا تراه على مرآة الفعل المضارع المفيد للتجدد ... تراه .. ينفق تراة إن لم يكن بعين رأسك .. فَبِعَيْن خيالك!

أى أن إنفاقه لم يكن بيضة الديك .. وإنما هو: كما يرسمه الفعل الذى يمثل شريطا تراه عليه متحركا .. باذلا..

ولكن الآية الكريمة عند الحديث عن كظم الغيْظ .. تُؤْثر التعبير بالاسم .. ﴿**والكاظمين الغيظ..**﴾ لأن الحكمة هنا ـ والله تعالى أعلم بمراده هى الإخبار بأن كظم الغيظ .. صار فى كيانهم ملكة راسخة .. لا تُستدعى لحظة الغضب من خارج الذات .. بل هى حاضرة .. جاهزة لمواجهة الموقف الصعب.. مهما كان مكلِّفا..

ولكن .. إلى أىّ حد تكون درجة التحمل فى قلب المسلم؟.. حتى يأخذ سبيله إلى الجنة؟

إن الكظم يعنى كما يقول المبرِّد: أنه كتم غيظه على امتلائه منه كقولك؛: كظمْتُ السقاء.. إذا ملأته .. وسدَدْت عليه..

إنه ليس غيظا ـ بالتنكير ـ ولكنه «الغيظ» بالألف واللام .. إنه هو الغيظ الذى يوشك أن يكون انفجارًا أى أن الظلم الواقع على المظلوم كان شديدا .. وهو يحس بالتوتر ثم يَستَنْفر كل قواه للرد **القاسى**.

وبينما نفسه الأمارة تغلى كالمرجل .. وهى تناديه أن رُدَّ اللطمة لطمات .. لا لطمتين..ولكنه وعلى الفور .. يستنفر قوى الخيْر فيه .. وفى هجوم مضاد ليصد تيار الانتقام .. ويربط على قلبه المكلوم والذى يتفجر غيظا حتى لا يفلت الزمام من يديه.. وإنه لموقف لو تعلمون عظيم .. لا يُلَقَّاه إلا ذو حظ عظيم..

ولن يكون ذا حظ عظيم إلا مَنْ: كفَّ غيظه عن الإمضاء...ثم رده إلى

جوفه.. ولم يعبِّر عنه .. لا بقول .. ولا بفعل وحين يتجرع جُرعة الصبر الموجعة هذه فإنما يتجرعها: بصبر .. وحسن عزاء .. على أن يكون ذلك كلُّه احتسابا وهو قادر على إنفاذ غضبه..

ولأن المهمة على غاية ما تكون الصعوبة .. فقد حرَّضت السنة المطهرة عليها تحريضا يكافئ نسبة المعاناة فيها..

يقول ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة. ولكن الشديد: الذى يملك نفسه عند الغضب»[1].

لقد كان الصحابة يتصورون أن الشديد هو الذى لا تصرعه الرجال..ولكنه ﷺ يصحح مفهُوم البطولة فى أذهان الصحاب .. لتكون من نصيب المتقِى .. الذى انتصر أوَّلا فى معركته مع نفسه.. ثم ليأخذ فى النهاية جزاءه من جنس عمله كما يقول ﷺ: [من كف غضبه .. كف الله عنه لسانه .. ومن خزَن لسانه ستر الله عورته .. ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره][2].

ولقد تنافس الصحابة رضوان الله عليهم .. ليفوزوا فى هذا المضمار.. ولئن تراجع معنى البطولة الجسمية.. ليُفسح الطريق أمام البطولة النفسية .. فكان البطل حقا هو: الذى يكظم غيظه..

إذا كان الأمر كذلك .. فقد كانت الصدقة بالعرْض غاية المسلم الذى يَسبُّه الآخرون .. فيجعلُ من الصبر وقاء .. ثم يكون هو فى مقدمة المتصدقين .. بل هو أولَى منهم بالفعل:

قال ﷺ لأصحابه يوما[3]: [تصدقوا...]

فتصدقوا بالذهب والفضة والطعام.

وأتاه الرجل بقشور التمر .. فتصدق به.

. وجاء آخر فقال: والله ما عندى ما أتصدق به . ولكن أتصدق بعرضى . فلا

---

(١) مسند أحمد ٢/٢٣٦ ومسلم كتاب البر.

(٢) تفسير ابن كثير: هذا حديث غريب فى إسناد هو نظر.

(٣) الحديث فى الفخر الرازى ـ تفسير آل عمران.

أعاقب أحدا بما يقوله فى حديثه . وقد نوّه صلى الله عليه وسلم بصنيع هذا الرجل حين وفد عليه جماعة من قومه فقال لهم: «لقد تصدق منكم رجل بصدقة . . ولقد قبلها الله منه: تصدق بعِرْضِه»!!

أجل: وإنهم لأجدر الناس بحبنا . . حين كظموا غيظهم . . فحفِظوا بالعفو خلاياهم فلم تحترق . . وكانوا فى الطليعة دائما:

وإذا كان أجود الناس: من أعطى مَنْ حَرَمَه . . فأحلم الناس: من عفا عمن ظلمه . .

ألا أن لحظة الغضب لهى فرصة الشيطان التى ينتهزها فلنحذره على ديننا وأنفسنا .

وحين ينتهى الحديث إلى هنا فإنى أفتح عينى على هؤلاء الصبية الصغار وهم يلعبون . . فماذا رأيت: رأيت درسا عمليا فى الصفاء . . والعفو إنهم يتخاصمون . . ثم لا يتحاقدون . . وإنهم ليعودون فى نفس اللحظة أصفياء . .

وليت فى الرجال . . . من مناقب الأطفال . أحيانًا . . على الأقل!!

*****

من قمة الغضب

إلى حسن الأدب

ذات يوم . . فعل خادمٌ لعائشة رضى الله عنها ما غاظها . . فقالت:

لله درّ التقوى: ما تَرَكَتْ لِذِى غيظ شفاء[1].

لقد التزمت بآداب المتقين . . فكان لابد أن تكون من الكاظمين . . الذين منعتهم التقوى من الانسياق وراء نزعة الانتقام . .

وإذا كان الخطأ جسيما . . وكان الغيظ فوّارا . . . فإنها تحبسه . . وبقوة . . وبينما يغلى قلبها عندئذ كالمرجل . . لكن الإرادة الصلبة تمنعه . . فلا ينفجر!

لقد كان كظم الغيظ . . ديدن الروّاد الأوائل . . ومنهم معاوية رضى الله عنه:

روى صاحب الروض: أن معاوية حج . ومعه جُنده . الذين زاحموا السائب ابن عبد الله . . حتى سقط من شدة الزحام.

فوقف عليه معاوية وهو خليفة ـ وقال: ارفعوا الشيخ: فلما قام السائب من سقْطته . . اتجه إلى معاوية قائلا: ما هذا يا معاوية!!؟ تصرعوننا حول البيت؟!

أما والله لقد أردت التزوج من أمك {هند بنت عتبة}.

فقال معاوية: ليتك فعلت . . فجاءت بمثل عبد الله بن السائب {يعنى ولد السائب}

فانظر إلى معاوية الأواهُ الحليم: كاتِب الوحى . . الصحابىٍّ الجليل . . الخليفة . . العربىٍّ الأبى . . ثم تأمل حلمه الذى كظم به غيظا . . يزلزل قواعد هذا الحلم . . مع أنه لم يأمر الجُند . . بأن يزاحموا السائب . . وهو الذى أمر بإنقاذ الشيخ حتى لا يموت فى الزحام . .

ومع هذا يلاقيه السائب بما يُمجُّه الحسى العربى الأبى . . ويركب معاوية معه

---

(١) الكشاف عند تفسير قوله تعالى: ﴿والكاظمين..﴾

الموجة معلنا أسفه أنه لم يتزوج السائب أمه التى كان من الممكن لو تم الزواج أن تلد ولدا نجيبا كأولاد السائب النجباء..

تأمل هذا.. ودع السائب .. يمسح عرقه .. ويلملم رداءه خَجَلا..

لترى نعمة الله على معاوية رضى الله عنه .. والذى انتصر فى معركة التحدى..

ورحم الله الإمام عليا رضى الله؟ عنه عندما قال: «الحلم: غطاء ساتر. والعقل: حسام باترفاستر خلقك بحلمك وقاتل هواك .. بعقلك»

وقد كظم معاوية رضى الله عنه غيظه .. فستر بحلمه غيظه .. وقتل هواه .. بعقله .. فطوبى له .. ولكل من سار على دربه:

فرَدَّ بحلمه جهل الجاهل .. وَصَان بورعه المحارم .. ودارى بعفوه الناس.

إن صناعة الترفق لا يُلَقَّاها إلا أولو العزم.. الذين يداوون بكظم الغيظ جراحهم.. فيَقضُون أهم حاجاتهم..

لو سار ألف مدجج فى حاجة

لم يقضها إلا الذى يترفق

إن الترفق للمقيم موافق

وإذا يسافر .. فالترفق أوفقُ

ولاحظ من أخلاق الأنصار التى نوّه بها القرآن ما أشار إليه قوله تعالى:

﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾

إنهم لا يكْتَفُون بالصفح.. لأن الصفح هو: صرف النظر عن عقاب المخطئ.. فلا يؤاخذ بذنبه..لكنهم «يغفرون» يغفرون هكذا .. ودائما .. إنهم من المغفرة فى رباط دائم .. يبذلون فطرة السماحة فيهم.. ثم لا يفترون. ولا يمنّون..

ومعنى غفران السيئة: سترُها .. فلا نُشهِّر بالمخطئ تعويضا عن عدم مؤاخذتنا له..

بل إن من معانى الغفران: إصلاح حال المخطئ .. لنكون معه على الشيطان.. ليصير المخطئ سَوِيّاً كما كان!!

وناهيك بالأنصار الذين إذا ما غضبوا .. إذا ما توفرت دواعى الغضب .. لم يَنْقَضُّو على الخصم منتقمين.

كما وأنهم لا يكتفون بالصفح .. تاركين العقوبة..

وإنما .. وفى فورة الغضب .. فى قمته .. يغفرونه .. يسترونه .. وكأن شيئا لم يكن..ويالها من نُقلة حَمَلَتْهم على إفراغ شحنة الغضب كلِّها .. فى لحظة .. هى أجمل لحظات الانتصار..

ومن ثم كانوا جديرين بتنويه الله تعالى بهم بقوله تعالى: **﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾**.

يغفرون: من قمة الغيْظ .. إلى قمة الغفران . من قوة الغضب .. إلى حسن الأدب.

وإذن: فهم الأحِقَّاء بالغفران فى حال الغضب: لا يغتال الغضب عقولهم .. كما يغتال حلومَ الناس..وأولئكم هم الناس .. إذا اضطرب فى أيدينا المقياس

*****

العفو ونسيان الخطأ

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

[ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله .. إذا الناس نائمون.. وبنهاره .. إذا الناس يفطرون..وبحزنه .. إذا الناس يفرحون..وببكائه .. إذا الناس يضحكون..وبصمته.. إذا الناس يخوضون وبخشوعه .. إذا الناس يختالون

وينبغي لحامل القرآن أن يكون عليما حكيما .. لينا مستكينا ..ولا ينبغي له أن يكون جافيا . ولا محاربا ولا صيَّاحا.. ولا صخابا .. ولا حديدا [أي حاد الطبع].

وإذ يشكل القرآن هكذا مجموعة من القيود .. تجعل من حامل القرآن غريبا في وطنه.. فإنَّ أشق هذه القيود هو ألا يكون المسلم جافيا وتلك سمة من سمات المتقين الذين يحاولون بكظم الغيظ أن يفلتوا من قبضة الهوى الجانح بالإنسان .. إلى مالا يُرضي الإيمان..

ذلك بأن فرصة الشيطان الكبرى هي الضغط على الغاضب المتحفز للانتقام..

وهو بهذا الضغط العالي يسحب من طاقة المسلم العادية .. حتى تنتهي .. ليبدأ في الاقتراض من أعصابه .. فلا يَبقى منها .. إلا نَزْر لا يشكل خط دفاع ضدّ هجمة الشيطان الرجيم .. فإذا انتصر المسلم في هذه الجولة على شيطانه وهواه .. وصَلَ به كظم الغيظ إلى منتصف المسافة..

لتبدأ مرحلة العفو الذي هو ـ كما قال العلماء ـ أخص من كظم الغيظ..

لأن العفو هو الخطوة التالية .. والخاتمة .. والتي بها يُسقِط المظلوم الحق عن الظالم بالكلية..

ولأنه كذلك .. [ولأجل زيادة فضله قال تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

(1) الأعراف: ١٩٩.

ولقد صار العفو بذلك تاج العز على جبين العافين:

قال موسى عليه السلام: يارب: أى عبادك أعز عليك؟

قال: «الذى إذا قَدَرَ عفا»(١).

ولأن القمة هنا صعبة المرتقى .. فقد تلطف ﷺ بأمته .. ببيان فضل العفو ليعينهم على الصعود. روى مسلم قوْلَه ﷺ:

«يا عائشة: عليك بالرفْق .. فإنه لا يدخل فى شىء إلا زانه ولا نُزِع من شىء إلا شانه»(٢).

بل إن الفوز بحب الله تعالى .. وما يترتب عليه من نعمة التوفيق.. إنما هو نصِيب أهل بيت كان العفو شرعة لهم:

يقول ﷺ: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»(٣).

ومن رحمة الله تعالى أنه إذ يأمر عباده بالرفق .. فإنه لا يكلفهم شططا.. ذلك بأن المسلم بحكم إيمانه مفروض فيه أن يكون هينا لينا:

فالمؤمن: كالبعير الأنف

أى لا يُديم التشكى مما به إلى مولاه..

وفى رواية:

المسلمون: هيّنون .. لينون .. كالجمل الأنِف:

إن قِيد انقاد.. وإن أينح على صخرة استناخ.

ولقد كان المسلمون ـ وعلى مستوى القمة التى قد تغرى بالعدوان كانوا عند حسن الظن بهم عافين عن الناس:

فى مجلس من مجالس الشورى .. التفت الخليفة المنصور .. يطلب رأى

---

(١) مكارم الأخلاق للخرائطى.

(٢) كتاب البر والصلة.

(٣) رواه أحمد بسند جيد

الناس فى أمر ابن عمه عبد الله بن علىّ الذى ثار عليه .. ثم تغلب عليه المنصور..

وفى مثل هذا الجو المشبع بحب الانتقام يقول له رجل: الانتقام عدل .. والتجاوز فضل

والمتفضل قد جاوز حد المنصف..

ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضَى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين!!

ولم يرض المنصور لنفسه إلا بأرفع الدرجتين فعفا عن أهل الشام جميعا.

وكانت شفاعة حسنة .. حققت ثمرتها.. كأخت لها .. والتى وردت على لسان شافع لدى السلطان لقوم حَبَسهم:

فقال له: إن كنت حبستَهم بباطل .. فالحق يُطلقهم وإن كنت حبستهم بحق.. فالعفو يسعهم ورحم الله محكوما: أعان الحاكم على بِرِّ أمته.

*****

عفو الخالق

وعفو المخلوق

بكى الصحابة يوما .. من موعظة وعظهم بها ﷺ .. بكَوْا جميعا .. إلا واحدا .. فقد ضحك دونهم؟!!

فلما سأله ﷺ عن سر ضحكه قال: مَنْ المحاسب يا رسول الله؟ فقال:

«الله!»

فقال الرجل مبتهجا: نَجَوْنَا وأيْم الله .. فإن الكريم إذا قدر عفا!

وكان درسا.. ترسَّخت به قيمة العفو فى قلوب الصالحين من عباد الله، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[1].

فإذا كان الخالق القادر يعفو .. فشيمة المسلم أن يكون كذلك فى تعامله مع الآخرين من عباد الله.. ذلك بأنهم: عبيد.. ففيهم ما فى العبيد من خضوع.. وتواضع .. واستسلام.. ثم إنهم: عباد الرحمن .. ففيهم من رحمانيته سبحانه أقباس من التسامح .. والعفو ..

إنهم يطلبون لأنفسهم الرحمة .. وسبيلها أن يكونوا راحمين.. ومن ثمرات هذه الرحمة .. بركاتٌ من السماء والأرض..

وتصوَّرْ ذلك الموقف الذى يتصدى فيه البذىء .. فى محاولة لنقل ما فيه إلى الرجل النبيل.. فما هو الحل:

إن كل إنسان يبذل فطرته: فإذا بذل البذىء ما لديه من عفن.. وإذا تلبدت الغيوم.. وتداخلت القيم.. وارتفع فى الجو غبار..

إذا حدث ذلك.. فلا بأس .. ولْيبذل النبيل طبيعة الخير فيه . والعاقبة للتقوى. واستمع إلى هذه اللمحة بريشة الأديب .. لتدرك حسن المآل .. للنبلاء من الرجال:

---

(١) الفرقان: ٦٣.

{إنك تأخذ حبوب القمح فى بطن الأرض.. وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بتبن .. وتراب .. وقشور.

ولكن لا بأس: ألق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى .. فى جوف الأرض البارة .. فليتألق معنى العفو فى قلبك. وحاول ألا تصغى لهتاف النفس الأمارة .. فإن الأرض ستعطيك قمحا خالصا نقيا. أما القذى فإنها ستبلغه .. وتنساه..

ثم أما بعد: فسوف ترى القمح زاكيا .. يهتز كأنه سبائك الذهب الإبريز.

وهكذا الطبيعة دائما: فهى حق.. لا باطل..

وهى لا تشترط فى الشىء إلا أن يكون صادق اللباب .. حرَّ الصميم.. فإذا كان كذلك .. حَمَتْه .. وحرَسته .. ونمَّته وإن لم يكن كذلك .. لم تحمِه ولم تحرسه..}

وإذ تبدو مواجهة الشر بالخير صعبة.. فإنها لكذلك فى بواكيرها..

وسبيلنا إن لم يكن العفو سجيةً أن نتعلمه بالتجربة والمران:

قال أبو الدرداء: «إنما العلم بالتعلم. وإنما الحلم بالتحلم .. ومَنْ يتوخَ الخير يُعطَه.. ومن يتوقَّ الشر يُوَقَّه»

وكما قالوا: {أوَّل الحلم:

المعرفة: ثم التثبت. ثم العزم. ثم التصبُّر. ثم الصبر ثم الرضا. ثم الصمت والإغضاء. وما الفضل إلا للمحسن إلى المسىء..

فأما من أحسن إلى المحسن. وحَلُم عمن لم يؤذه. فليس ذلك بحلم ولا إحسان}

ولقد تواصت الأمة بهذه المعالى حتى صارت سمة من سماتها.. بل لقد حرص الآباء على أن تكون هديةً لأبنائهم .. ضمن وصايا من شأنها تعودهم على ضبط الأعصاب فى المواقف الصعبة قبل أن تفلت من بين أيدينا .. فينفرط عقدها..

عن وهب بن منبه أنه قال:

[يا بنى: لا تجادل العلماء .. فتهون عليهم فيرفضوك. ولا تمار السفهاء .. فيجهلوا عليك ويشتموك.

فإنه يُلحق بالعلماء من صبرَ ورأى رأيهم. .وينجو من السفهاء من صمت وسكت عنهم..

ولا تحمينَّ مِنْ قليل تسمعه .. فيوقعك فى كثير تكرهه. ولا تَفْضَح نفسك لتشفى غيظك. .فإنْ جهل عليك جاهل فلَيَنْفَعَنَّ إياك حلمك..

وإنك إذا لم تُحسِن حتى يُحسَن إليك .. فما أجرُك وما فضلك؟

فإذا أردت الفضيلة فأحسن إلى من أساء إليك .. اعفُ عمن ظلمك. وانفع من لم ينفعك. وانتظر ثواب ذلك من الله.. فإن الحسنة الكاملة: من لم ينتظر صاحبُها عليها ثوابا فى الدنيا].

*****

وإذ يَسعدُ المتقون بتقواهم. . ثم تسعَدُ بهم من بعد الحياة. .

فإن الحديث عن أضدادهم من الباخلين . . الظانّين بالله ظن السوء . . إن الحديث عن بخلهم . . ومصيرهم . . لَيُظهِرُ لنا قبح القبيح لنزداد بالجمال استمساكا.

وفى القرآن الكريم شواهد . . تؤكد كيف كان المتنكبون عن صراط المتقين أعداء أنفسهم بما خَطُّوا لها من مصير استحقوه بما قدمت أيديهم:

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى عن مصير هؤلاء الكانزين:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

وحين تسأل عن سر هذا المصير الرعيب . . تجيبك الآيات الكريمة **﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾** [الحاقة ٣٣ ـ ٣٧].

أى أنه لم يكن يؤمن بالله تعالى إيمانا يحمله على الشفقة بالمخلوق . . فكان هذا المصير المشئوم . جزاءه المحتوم. .

ونتأمل قوله تعالى فى سورة البلد:

﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد ١١ ـ ١٨].

ولاحظ كيف تقدَّم فكُّ الرقاب. . وإطعام الطعام . . على الإيمان نفسه . . مع أنه حقه التقديم. ذلك بأن هذه الفضائل إنما هى غاية الإيمان الكبرى ومقصوده

الأعظم. فإذا لم يثمرها . . فلا كان هذا الإيمان العقيم . .

وتأمل قوله تعالى: **﴿فى يوم ذى مسغبة﴾**.

إن اليوم نفسه جائع . . جائع . . نعم جائع: فى مجتمع ضاع فيه اليتيم . . والمسكين . . ونزفت الجراح . . ولم تجد من يسكت نباحها . . مجتمع يجوع فيه مسلم . . بينما جاره بات شبعان . . إن كل شىء عندئذ جائع . . جائع . . ولو امتلأت الحوانيت بالسلع . . ولو قفز الرصيد فى البنك عُلُوًّا

وفرارا من هذا المصير . . تلَمِّح الآية الكريمة إلى مسئولية المجتمع بكل طبقاته عن إنقاذ هؤلاء الظمأى . . الجائعين . . المحزونين . .

لا تكفى الحركة الفردية . . والتى تجىء كحسو الطائر لا تشفى غليلا . .

وإنما هو المجتمع كله . . كما يشير ضمير الجمع: **﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾**

يقول تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يُكَذّبُ بالدّين . فَذَلكَ الّذي يَدُعُّ الْيَتيمَ . وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمسْكين . فَوَيْلٌ لّلْمُصَلّينَ . الَّذينَ هُمْ عَن صَلاتهمْ سَاهُونَ . الَّذينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾**

فالسورة الكريمة تجعل من دع اليتيم ونَهْره مساويا للتكذيب بالدين كله . . من حيث كان الدع جَرْحا للكرامة الإنسانية .التى ما جاء الدين إلا لحمايتها . وبل والمغالاة بها . .

وما ظنك بامرئ لا يَرحَم . . ولا يريد لرحمة الله أن تنزل . . حين لا يكتفى بالشح . . وإنما لا يحض غيره من القادرين . . على طعام هذا المسكين . .

وقد تكون له صلاة . . لكن ما قيمة هذه الصلاة . .

إنها عليه . . لا له . . **﴿فويل للمصلين . .﴾**

المصلين الذين يؤدون الصلاة أداء مسرحيا . . لم يثمر فيهم صحوة الضمير . . ولا رحمة القلب . . ولم يقتل فيهم رذيلة الأنانية . .

إنهم فقط مراؤون . . يقتنصون بهذه العبادة منافع الدنيا . . ثم هم بخلاء . .

أنانيون .. على نحو شاهد بعراقتهم في باب الأنانية التى غلّت أيديهم .. وفرضت عليهم أن يمنعوا الماعون .. وهو التكليف اليسير الذى يقدر عليه كل إنسان .. فأهدروا بهذه الرذائل كلَّ مَثُوبتهم من صلاتهم ذلكِ بأن حكمة الله تعالى من وراء العبادات هى: صقل النفس ... وتزكيتها.. تعبئتُها - كما يقول العارفون - بالمشاعر الخيِّرة..

وإعدادُ العابدين للخدمات الإنسانية العامة.. والبذلِ من أجل الاخرين من العاجزين .. والظمأى.. والمغلوبين.. فإذا لم تحقق العبادة هذا المستوى العالى .. لا جرم تكون مردودة على أصحابها.. ومَنْ أصحابها الأشحاء .. ومن الأشحاء هذا الذى يمرض يوما .. فيتمنى لو ملك الدنيا كلها. ليدفعها ثمنا للشفاء.. فإذا شُفِى تحرك فيه الطمع فتمنى لو كانت له هذه الدنيا وحده!

الْتَقَى عابرُ سبيل بالحسن بن على رضى الله عنه .. فدفع الرجل إليه رقعة فما كان من الحسن إلا أن قال له .. وقبْل أن يقرأها: قضيتُ حاجتك!!

فقيل له: كيف .. وأنت لم تقرأها؟!! قال:

خشيت أن يسألنى الله عز وجل .. عن ذُل وقوفه بين يدى حتى أقرأ حاجته.. ثم قال:

ليس السخى من يبذل ماله لطلابه .. إنما السخى:

من يبدأ بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته .. غيرَ طالب منهم ثناءً أو شكرا[1]. وهكذا قالوا: خيرا لنوال ما كان قبل السؤال.

وعندما يقول تعالى. ﴿والله يحب المحسنين﴾ فإن من معانى ذلك الإحسان: أن المتقين .. وفى طليعتهم الحَسَن رضى الله عنه: يحسنون... حين ينفقون .. وحين يكظمون .. وحين يعفون.. ونحن أمام صورة من الإحسان فى أفقه العالى:

فمهما تكن حاجة الرجل مكلِّفة .. لكن الأهم منها: كرامة صاحب

---

(١) أسنى المطالب ١٠١، ١٠٢.

الحاجة.. والتى حفظها الحسن إلى الحد الذى لم يبح لنفسه أن يقف الطالب محرجا بين يديه لحظات .. وإلى أن يقرأ حاجته!!

١ - إن الحسن رضى الله عنه سليل بيت العزة .. ومن ثم فهو يبذل فطرته.. ولا يهدأ له بال حتى يرى الناس من حوله أعزاء وهكذا رباه أبوه علىٌّ رضى الله عنه.. والذى كان يتعوذ من الفقر فرارا من الهوان .. وطلبا للعزة المركوزة فى طبعه ومن دعائه رضى الله عنه:

[اللهم: صُن وجهى باليسار .. ولا تبذلْ جاهى بالإقتار .. فأسترزقَ طالبى رزقك .. واستعطف شرار خلقك .. وأُبتلى بحمد من أعطانى . وأفتن بذَمِّ من منعنى..

إن الغنَى فى الغربة وطن .. والفقرَ فى الوطن غربة .. وإن المُقِلَّ فى بلدته غريب][1].

٢ - وإذا ارتعدت أوصال الحسن خشية حساب ربه تعالى لأنه وقف بالسائل لحظات .. فكم يكون عذاب هذا الضمير الصاحى لو أنه نهره .. أو لم يقض حاجته؟!!

إن هذا الطراز الفريد من المتقين - كان يتصور القادم إليه فى حاجة .. يتصوره نعمة تتقاضاه شكرها:

قال فيض بن إسحاق:

كنت عند الفضيل بن عياض .. إذ دخل رجل فسأله حاجة .. وألَحَّ فى السؤال.

فقلت للسائل: لا تؤذِ الشيخ [يعنى ابنَ عياض]

فقال لى الفضيل:

اسكت يا فيض: أما علمت أن حوائج الناس إليكم. نعمةٌ من الله عليكم؟!

(١) نهج البلاغة ٣٦٦,٣٦٧.

فاحذروا أن تَملُّوا النعم فتتحولَ نِقما. .ألا تَحمَدُ ربَّك أن جعل الناس تسألك . . ولم يجعلك تسألُ الناس؟؟

إنه الإحساس العميق بكرامة الإنسان . . هذه الكرامة التى كان المتقون أحرص الناس عليها . . فى قول قائلهم:

{الموت أهونِ من الفقر الذى يضطر صاحبه إلى المسألة وبخاصة: مسألة اللئام. .

فإن الكريم لو كُلِّفَ أن يُدخِل يده فى فم التنين. . ويُخرِجَ منه سُمّاً يبتلعه. . كان عليه أسهل وأخفَّ من مسألة اللئيم البخيل.

ذلك بأن الأمر كما قيل:

{كل سؤال وإن قل . . أكثرُ من كل نوال وإن جل}

ولقد كانت الكرامة هدفا إنسانيا:

قال الحكيم اليونانى لما سأله رجل علِّمنى ما يقربُنى من الله ومن الناس: فقال:

أما ما يقربك من الله . . فمسألته. وأما ما يقربك من الناس . . فترك مسألتهم

لقد كان المتقون كرماء . . فصانوا بإحسانهم الأكْرَمين: الدين والعرض. .

وذهاب المال عندئذ لا يكون ذهابا . . وإنما هو الرصيد المذخور للإنسان . . وذلك قول الشاعر: ذهابَ المال فى حمْد وأجر ذَهاب لا يقال له ذَهاب!

أما الأجر . . فعلى الله . . الذى لن يُضيع أجر من أحسن عملا. .

وأما الحمد . . فَبِمثْل هذه الضراعة التى أعلنها الشاعر مسجلا كيف بالجود. . يتحقق الوجود.

تبرَّعت بالجود حتى نعشتنـــــــــى

وأعطيتنى . . حتى حسبتُك تلعب!

وأنْبَتّ ريشا فى الجناحين بعدمـــــــــا

تساقط منى الريش . . أوكاد يذهــــــــب

فأنت الندى . . وابن الندى . . وأخو الندى

حليف الندى . . ما للندى عنك مذهــــب

*****

يقولون: إن الإنسان أكبر من مجموع الأعضاء التى يتألف منها.

ومهما كانت هذه الأعضاء متشابهة مع أعضاء حيوانات أخرى .. فإن فيها من الصفات ما يجعل الإنسان حالة خاصة بين المخلوقات..

ومن هذه الصفات: كظم الغيظ .. والعفو عن الناس .. وما وراء ذلك من قدرة على الاصطبار فى مواجهة الأخطار.

وهكذا يقول الباحثون:

{إن قدرة الإنسان على التحمل أكبر مما نتصور:

فقد تمر على الإنسان أيام سهلة .. ليس فيها تعقيد أو صعوبة. ولا تحتاج منه إلى جهد كبير فى مواجهة تلك الأيام التى تمر به فى لطف وسلاسة.

ولكنه قد يجد نفسه فجأة أمام مشكلة عسيرة .. وهنا يتحول الإنسان تحولا كبيرا .. ربما لم يكن يتوقعه هو نفسه .. ولم يتصور أنه قادر عليه وإذا به يجد بداخله قوة تدفعه إلى الاحتمال .. والصبر .. والمواجهة.. ثم الرضا بما تُسفر عنه المواجهة الساخنة.. ما دامت هذه النتيجة لا مفر منها.} آهـ.

ويعنى ذلك أن الرجل السوى .. لا يهربُ من المشكلة .. ولكنه يواجهها.. على ضوء صبره الذى يضىء له المسالك..

{والمهم أن يكتشف الإنسان تلك القدرة. وأن يلجأ إليها ويستخدمها كلها كلما احتاج إليها.

أما الذين لا يَعْرفونها فهم ينكسرون عند أول صدمة.. ويُصْبِحُون مثل المقاتل الذى يفقد حياته فى المعركة.. لا بسبب قوة عدوه. بل لأنه لم يستخدم السلاح الذى فى يده. ولم يدرك أن هذا السلاح كان كافيا لحمايته . والخروج به من محنته}اهـ.

وليس هناك أقسى فى حس الإنسان من ظلم يقع عليه.. ومن صديقه الحميم وليس للموقف إلا الصبر الجميل:

قال الأحنف بن قيس: ما سمعت بعد كلام رسول الله ﷺ أحسن من كلام أمير المؤمنين «على» رضى الله عنه حيث يقول:

إن للنكبات نهايات لابد لكل أحد إذا نُكب من أن ينتهى إليها. فينبغى للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضى مدتها. فإنّ فى دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة فى مكروهها.

قال الأحنف:

وفى مثله يقول القائل:

الدهر تخنق أحيانا قلادتـــــــــــه

فاصبر عليه ولا تجزع ولا تثـــــب

حتى يفرجها فى حال مدتهـــــــــا

فقد يزيد اختناقا.. كل مضطرب [1]

ومادام الإنسان يتقلب فى دنياه.. فلابد أنه واجد ما يُغضبه. وإذن فخير عدته هى الصبر الجميل وكما أن الشكر واجب فى السراء.. فالصبر واجب فى الضراء..

قال الحافظ بن حجر: [2]. الشكر: يتضمن الصبر على الطاعة. والصبر عن المعصية.

قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر. لا يتم إلا به. وبالعكس: فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر: فمن كان فى نعمة ففرضُه: الشكر والصبر.

أما الشكر: فواضح. وأما الصبر: فعن المعصية

ومنْ كان فى بلية ففرضه: الصبر والشكر.

أما الصبر فواضح.. وأما الشكر: فللقيام بحق الله تعالى عليه فى تلك البلية

---

(١) كنز العمال ٣/ ٧٥٢

(٢) فتح البارى ١١/ ٣٠٥

فإن لله تعالى على العبد عبودية فى البلاء. كما له عليه عبودية فى النعماء.

ثم الصبر على ثلاثة أقسام: صبر عن المعصية. فلا يرتكبها. وصبر على الطاعة.. حتى يؤديها وصبر على البلية.. فلا يشكو الله فيها

والمرء لابد له من واحدة من هذه الثلاث.. فالصبر لازم أبدا

وما أجمل أن نتوج صبرنا بالعفو عمن أساء إلينا..

وقبل أن تطول فترة الخصام.. فيتسع الخرق .. حين نزيده بالإصرار تراكمات ومضاعفات.. ترتد إلينا توترا.. فى أعصابنا.. ووهنا فى قوتنا.

*****

فيما يرويه ابن المبارك رحمه الله تعالى:

دعانا عبد الله بن عون إلى طعامه. فكنا نأكل. فجاءت الخادم ومعها صحفة. فعثرت فى ثوبها. فسقطت الصحفة من يدها. فقال لها: لا تخافى .. أنت حرة !!

لقد كان ابن عون رحمه الله تفسيرا عمليا لقوله تعالى:

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[1].

ولكى نتصور حساسية الموقف.. وبالتالى إذا أردنا أن نتصور عمق العفو هنا.. فعليك أن تدرك ما يلى:

١- كان فى الدار ضيوف.. ونحن مأمورون بحسن استقبالهم ، فلا يكون من أهل الدار تصرف يزعج هؤلاء الضيوف.

٢- وقد بدأ الضيوف يأكلون فعلا.. ،ها هى ذى الأوانى تأتى تباعا..

وفجأة ينقطع الخيط.. ويتوقف الأكل.. عندما سمعوا صوت الصفحة التى طارت شظايا

٣- ولعلنا ندرك الآن مدى الإحراج لدى ضيوف اقترن وجودهم بهذا الحادث المفاجئ.. وما قد يترتب عليه من قيل وقال.. وكثرة سؤال.. من قبل الفارغين العابثين..

٤- ويجىء العفو.. وفى أوانه.. قويا يُنقذ الموقف المتوتر..

لينقذ الضيوف أولا من ورطة الإحراج..

٥ - فإذا تصورت عمق إحساس ابن عون بحجم الخطأ.. وإن لم يكن متعمداً.. لم يخطر ببالك إلا أن يسكت على الأقل.. فلا يعاقب الخادم.. لكنه مارس العفو من موطنه العالى:

---

(١) النساء ١٤٩.

أ ـ فقد كبت المشاعر الناقمة التى تريد التنكيل بالخادم.

ب ـ ولأن خوف الجارية كان عارما هذه المرة.. نظرا لوجود الضيوف.. فهو يسارع إلى طمأنتها أولا قبل أن يُسكت الخوف نبض قلبها.. فيقول لها: لا تخافى..

ثم يواجه الشيطان الذى حضر فى موعده ليضرب ضربته.. يواجهه بما يغيظه ليقول لها: أنت حرة!!

لقد كان ابن عون.. كان عونا للجارية على أن تستعيد رشدها..

ولم يكن جميله عندئذ أنه حررها.. بل قبل ذلك.. حرر نفسه هو من وسوسة الشيطان..

وواصل الضيوف الأكل.. فى جو ودود.. ظلله العفو..

أ ـ العفو الذى لم يكن عن هوى.. وإنما كان لله تعالى.

ب ـ والذى كان صادرا عن حاجة المعفو عنه.. لهذا العفو..

وهو العفو الذى تتماسك به الأمة على ما يقول سبحانه **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**[1].

٦ـ إنه العفو الذى نوه به القرآن.. وفى أعقاب غزوة أحد: فلقد عفا الرسول ﷺ عن الذين تولوا من المؤمنين.. بعد ما استذلهم الشيطان..

بل أضاف إلى ذلك: عدم مؤاخذتهم.. وإعطائهم فرصةً للتوبة..

بل ومشاورتهم..

وهو ما فعله ابن عون الذى لم يكتف.. بترك عقاب الجارية.. لكنه أضاف إليه نعمة الحرية التى صارت بها الجارية خلقا جديداً.

وبعد أن تصورت أبعاد هذا العفو.. عليك أن تسائل نفسك.. هل عاد العفو بالخير على المعفو عنه ليس إلا أن.. العافى كان قبله مستفيدا؟

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

قد يظن بعض الناس: أن العفو هبة من القادر.. لكنه هبة من الله تعالى.. له.. قبل أن يكون هبة.. منه!

يقول المربون:

إن المسامحة الحقيقية: هى التى تسمح لفاعلها بأن يتخلص من مشاعر الحقد الدفينة.. متحررا من استشعار ما حدث فى حقه من أخطاء.. بمعنى أن يُسقط من ذاكرته تلك التجربة المرة..

إنه الانعتاق من أسْر الماضى.. حتى يتمكن من التوجه بطاقته نحو المستقبل.. والمجتمع الإسلامى مسئول عن الوقوف إلى جانب المظلوم.. ليعفو.. وليحقق بالعفو توازنه النفسى.. وعندئذ سوف يجد الطريق مفتوحا بين يديه إلى مستقبل أفضل.. فإذا صار ذلك عاطفة سائدة.. كان العفو عن الناس.. كلٍّ الناس.. صار عملا ذاتيا يبذله العافى طواعية واختيارا..

وحتى إذا قضت الحكمة أن يعاقب يوما.. فهو العقاب على الذنب.. وحده.. وليس العقاب للغضب الذى يدمر فرص التفاهم.. وحرى بالمسلم أن يكون مدركا طبيعة الإنسان.. الذى هو أحوج منه إلى الإحسان.. هذا الإحسان المرتكز على قاعدة تقول:

لِنْ لمن يجفو.. فقل من يصفو

أما بعد: فقد سأل معاوية عمرا رضى الله عنهما: من أشجع الناس؟ فقال:

من رد بحلمه جهله فقال: ومن أجود الناس؟ قال: من بذل من دنياه صيانة لدينه

*****

كان إبراهيم بن أدهم يقول: [لأن أدخل النار وقد أطعت الله أحب إلى من أن أدخل الجنة وقد عصيت الله تعالى][1].

قال العلماء: معناه: لو دخل الجنة. وقد عصى الله تعالى.. فالحياء من الله تعالى من أجل ذنوبه باقٍ.. ولو دخل النار.. وقد أطاع الله تعالى.. لا يكون له الخجل والحياء.. ويُرجى خروجه منها!

فانظر كيف كانت حساسية الضمير الذى يُنغصُ الذنب حياته.. فلا يحس صاحبه معه بطعم النعيم ولو كان فى الجنة!

وهى لمحة تؤكد كيف كان الذنب فى حياة هؤلاء الأبرار خيانة عظمى.. وعلى رغم آيات البشارة.. فإن آيات النذارة كانت تحرمهم لذة النوم:

قال واحد من المتقين.. من رواد هذه المدرسة.. مدرسة الأوابين الأواهين:

[لا تغرنك هذه الآية: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾**

لأنه قد اشترط فى الحسنة: المجىء بها يوم القيامة.. والعمل سهل على العامل.. ولكن المجىء يوم القيامة شديد.. وإن السيئة واحدة.. ولكن لها عشر من العيوب:

أولها: أن العبد إذا عمل سيئة.. فقد أسخط خالقه على نفسه وهو قادر عليه فى كل وقت.

والثانى: أنه أسعد بالمعصية من هو أبغض إليه: إبليس: عدو الله وعدوه.

الثالث: تُباعده من أحسن المواضع وهو الجنة

الرابع: تُقربه إلى شر المواضع وهو النار

الخامس: أنه جفا من هو أحب إليه.. وهو نفسه

---

(١) الترمذى فى كتاب صفة القيامة وقال حديث حسن صحيح.

السادس: نجس نفسه وقد خلقها الله طاهرة

السابع: آذى أصحابه الذين لا يؤذونه وهم الحفظة.

الثامن: أحزن النبى ﷺ فى قبره

التاسع: أشهد على نفسه الليل والنهار.

العاشر: أنه خان جميع الخلائق: من الآدميين وغيرهم.

فأما خيانة الآدميين: فإنه لو كان لأحد عنده شهادة.. فإنه لا تقبل شهادته لأجل ذنبه.. فيبطل حق صاحبه من شؤم ذنبه

وأما الخيانة لجميع الخلائق: فإنه يقل المطر إذا أذنب. فكان فى ذلك خيانة لجميع الخلائق.

فإياك والذنب. فإن فى الذنب هذه العيوب. وفى ذلك كلِّه ظلم لنفسه بالمعصية}

وليت شعرى: أى مذاق للدنيا يبقى فى حسهم.. وهم على هذا المستوى من الخشية؟

ولكنهم المتقون:

إنهم أصحاب وجدان حىّ:

شديد الحساسية. عميق الشعور. بحملهم على مراقبته تعالى..وعلى درجه كافية من الانتباه والمحافظة على رصيدهم فى الآخرة.. ليربو..

إنهم أصحاب وعى.. مولعين بحساب النفس.. ونقد الذات..

فكلما عملوا سوءا أو ظلموا أنفسهم أسرعوا إلى ما يمحو أثره.ويزيل مفعوله.. إسهاما منهم فى وضع حد لروح العدوان لتحلُ روح الغفران..

يضاف ذلك إلى ما آتاهم الله تعالى من قدرة على ضبط النفس.. فهم بالمرصاد لنزوات النفس.. وشهواتها.. يحسنون التصرف فى أموالهم.. حين يضعونها فى مصارفها..

إنهم إذن: التجار الأحرار.. والذين استجابوا لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (1).

وأين منهم هؤلاء التجار الأغزار:

أولئكم الذين ينفقون.. بل يبذرون.. وبلا حساب.. والنتيجة هى: هى الإفلاس.. والذى يأتيهم بغتة ومن حيث لا يشعرون.

ألا إن للحياة وجهين: الأمل.. والأجل وبالأول بقاؤها.. وبالثانى فناؤها..

وقد كان عمل المتقين: إحياء هذا الأمل.. والاستعداد لهذا الأجل.. وأفضل ما فى الحياة.. أن نعمل فيها شيئا يعيش أطول من هذه الحياة.!

*****

(1) الصف: ١٠ ـ ١١

أرأيت إلى الطفل الصغير الغزير.. كيف يهجم على الجمرة.. فيلتقطها.. بيده.. ومن يده إلى فمه؟!

إن مشكلته هى: الجهل..الجهل الذى لم يتح له فرصة العلم بخاصية الاحراق فى الجمرة.. فكان عدوا لنفسه.. من حيث لا يدرى..

ومشكلة العاصى أيضا هى الجهل..الجهل بحكم الله تعالى فى القضية.. ومن ثم يتجرأ على العصيان.. وقد يعلم الحكم.. لكن دفعه الهوى تحمله على الإثم والعدوان..

من أجل ذلك كان العلم ضروريا: ليهلك من هلك عن بينة.. ويحيا من حى عن بينة..

ومن الضرورى أن يعلم المسلم من أى الأبواب تأتيه الريح؟

من أى نبع تسرى الذنوب إليه؟ما هى منطلقات الذنوب.. وما أسبابها.. ما أنواعها..ما هى آثارها؟

لابد من تشخيص العلة بمعرفة جذورها.. لأن تشخيص العلة نصف الطريق إلى الشفاء..

ومن هنا لخص العلماء مراحل الطريق إلى مغفرة الله تعالى فيما يلى:

١ـ العلم

٢ـ الندم

٣ـ العزم

٤ـ الإقلاع

وعن منابع الذنوب قالوا: إن فى الإنسان مجموعات من الصفات.. وعنها تصدر سائر أعماله:

أولا: صفات شيطانية.. وعنها يصدر الحقد والحسد والنفاق.

ثانيا: صفات بهيمية: وتصدر عنها شهوة البطن والفرج وسائر اللذات.

ثالثا: صفات غضبيه.. ومن افرازاتها: العدوان. والظلم والتسرع. وعدم التبصر.

رابعا: صفات ربوبيه: وينشأ عنها: الكبر. والفخر..وحب المدح والثناء.. واحتقار الناس

وأول خطوة على طريق العودة أن تدرك إلى جانب هذا.. أن الشيطان المريد واقف على هذه المنابع كلّها.. يُصدر إلى الإنسان كل هذه الموبقات:

وعلى سبيل المثال:

يوسوس له ان يختال: أن يزدهى بنفسه.. وبنعمة الله عليه.. وأن يتجاوز ذلك ليكون فخورا:

يغايظ الناس بهذه النعم.. بدل أن يشكرها بحسن استثمارها..

فإن صار ذلك غرورا فى كيان أمّة.. كان معناه انحدارها من القمة إلى السفح: ثم لتصير لقمة سائغة فى فم عدوها هكذا: تبدأ بالغرور..

ثم التفريط والإهمال ثم لا تأخذ وضع الاستعداد للطوارىء الهاجمة.

وأخيرا.. تُباغتها النتيجة الحتمية وهى: هجوم العدو.. ثم انتصاره عليها

إنه.. إذا كان القلب يضخ الدم فى الشرايين.. فإنه أيضاً يضخ المشاعر فى حنايا النفوس..

ومن هذه المشاعر.. مشاعر الغرور.. التى يستغلها الشيطان ليصيب الإنسان فى مقتل..وإذا به يمضى مع الشيطان.. حيران.. يعيش.. من الكون ومن الشرع.. فيما يشبه القبة الزجاجية: إنه يرى كل شىء.. ولكنه لا يسمع.. ولا يشم !!

والمسلم مكلف أن يخرج من هذا القمقم.. ليعيش مع دلائل القدرة..

والحكمة.. والرحمة. فى هذا الكون الرحيب..

ليخرج من كهف المعصية.. إلى نور الطاعة.. سائلا ربه الهداية.. والتحرر من كيد الشيطان..

ولا تركن إلى التبرير قائلا كما قال الأولون:

لو شاء هدانى .. لا تقل هذا مكتفيا به:

لسبب بسيط هو أنك لا تفعل هذا مع من يوزع الهدايا أو الجوائز..

إنك تعرض له.. بل وتلح عليه..

فاسأل ربك الهداية والتوفيق..والهداية مضمونة سلفا.. لكن المهم أن تطلبها.. مغايظاً بهذا الرجاء شيطانك المريد.. الذى يجب أن يكون عزمك فى مواجهته كهذا الواثق الذى قال:

إن كنت ريحا.. فقد واجهت إعصارا

*****

كان الفتى الثقفى سعيدا عندما خرج اسمه بالقرعة ليكون فى صحبته ﷺ فى إحدى الغزوات. .وقد تمت سعادته لما وجد فى صديقه الأنصارى خلفاً له على أهل بيته. . يرعى شئونهم فى غيبته. .وانتهزها الشيطان الرجيم فرصةً ذهبية ليضرب ضربته. . بينما العائل غائب فسول للأنصارى الذى قام إلى زوجه صاحبة المجاهد يريد تقبيلها. .

وبدأت هزيمة الشيطان:

أولا: تأبت الزوجة الشريفة. . فوضعت يدها على وجهها. . فحطمت بالإباء هذه الرغبة الهاجمة الآثمة. .

وثانيا: عندما أدرك الأنصارى حجم الذنب. . هام فى الصحارى نادما. . لأنه خان عهد الإيمان. . ثم غدر بعهد أخيه الذى أمِنه على بيته. . فجاءته القذيفة من منطقة الأمان. .

وارتد الشيطان خاسئا وهو حسير. . لما رأى الأنصارى. . يفلت من قبضته بالندم. . والاستغفار. . حتى نزلت هذه الآية [1] الكريمة فاتحة طريق العودة لمن أراد المتاب!

ويعنى ذلك أن الوقوع فى المعصية وارد. .ومحتمل. . ولكن ماذا بعد؟

إن الاستغفار هو طوق النجاة. . لمن أراد السبيل إلى هذه النجاة. .

وعندما نتصور الأنصارى الهائم النادم. . نحكم علي الفور بأن محاولة الأنصارى لم يكن معها سبق إصرار. . ولا ترصد. . وإنما هى الفورة الهاجمة فى لحظة من لحظات الضعف. . تشل إرادة الإنسان. . المتقى. والذى يمسه طائف من الشيطان فيتذكر. . ثم يعود. . ومن قريب. .

ليجد مكانه على ساحة المجتمع ما زال شاغرا. . ينتظره. . شريطة أن يقف بالاستغفار في مساقط الرحمة السابغة.

---

(١) والذين إذا فعلوا فاحشة. .

وكما يقول صاحب الظلال: [وحسبه أن شعلة الأيمان ما تزال فى روحه.. ولم تنطفىء.. وأن نداوة الإيمان ما تزال فى قلبه.. لم تجف. وأن صلته بالله تعالى لاتزال حية.. لم تذبل. وأنه يعرف أنه عبد يخطئ.. وأن له ربا يغفر..

وإذن.. فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ.. المذنب.. لا يزال بخير إنه سائر فى الدرب.. لم ينقطع به الطريق.. ممسك بالعروة الوثقى.. لم ينقطع به الحبل..

فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر.. فهو واصل فى النهاية: ما دامت الشعلة معه.. والحبل فى يده.. مادام يذكر الله ولا ينساه.. ويستغفره.. ويُقر بالعبودية له.. ولا يتبجح بمعصيته..

إنه لا يغلق فى وجه هذا المخلوق الضعيف الضْال باب التوبة.. ولا يُلقيه منبوذا حائرا فى النية. ولايدعه مطرودا خائفا من المآب.

إنه يُطمعه فى المغفرة. ويدله على الطريق. ويأخذ بيده المرتعشة. ويسدد خطوته المتعثرة. وينير له الطريق ليفىء إلى الحمى الآمن. ويثوب إلى الكتف الأمين]

ولقد كان هذه الفتى واحدا من هؤلاء المشمولين بمعيته سبحانه وتعالى: ذلك بأن الآية الكريمة تقول:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة..﴾ إنهم فعلوا.. ولم يعملوا..

وإذا كان فى العمل إرادة.. وتصميم.. وقصد.. فإن الفعل حركة بلا جذور فى النفس..

حركة غريبة.. كسحابة الصيف.. أو كالضيف.. سُرعان ما تزول.. إن الفعل: حركة البدن.. وحركته المتقطعة.. أما العمل فهو: عمل القلب..

وهكذا كان الأنصارى: لقد فعل.. ولم يعمل.. فالفاحشة طارئة عليه.. وليس محترفا لقد.. وقع على الذنب.. وقع عليه مضطرا لما رأى المثير.. ولم يرتب له من قبل.. أو يخطط له !

ويبقى أن نفهم من دروس سبب النزول أن الزوج لو كان موجودا.. لو كان له حضور.. ما كان لمثل النزعة الغريبة أن تنبت فى صدور الأطهار..ولكن نبتة الشر بزغت فعلا.. فى حقلٍ غاب صاحبه..

ويالها من لفتة كريمة. تلفت نظر أناس يغيبون.. ليمهدوا بغيبتهم السبيل إلى خيانتهم!

ومع يقيننا الجازم بنظافة الطبيعة المؤمنة.. وتأبيها على الخيانة.. ولكن الشيطان ما زال يخنس.. باحثا عن الصيد المستسلم..

فلنوازن بين الاغتراب.،. وما يجره من عذاب.. وبين الاستقرار في دار.. تعيش بالخبز.. والملح.. والعرض منها مصون.. والزوجات.. كالبيض المكنون!!.

*****

هل يمكن أن يتورط المتقى يوما فيفعل الفاحشة؟.

هل يمكن أن يظلم بفعل الصغائر العائدة عليه بالضرر؟

والجواب نعم.. وذلك واحد من الشواهد على واقعية الاسلام الذى يتعامل مع الإنسان على أنه بشر.. وما دام يمشى على الأرض فلابد أن يعلق به شيء من ترابها.. من ظلمتها!

كان عطاء ابن أبى رباح يقول: لو ائتمنت على بيت المال.. لكنت أمينا..

ولكن.. لا آمن نفسى على أمة.. شوهاء؟!!

فانظر إلى العابد الزاهد.. الطاعن فى السن.. كيف يخشى على نفسه الوقوع فى حمأة الخطيئة.. حتى ولو كانت الضحية مجردة من كل المغريات فكانت أمة.. سوداء.. وشوهاء أيضا!

وقل لى بربك كيف يأمن فتى يختلط بفتاة.. والنار تكاد أن تلامس الوقود؟

وإذ يكشف عطاء رحمه الله عن عرامة الغريزة.. التى قد تورط الإنسان فى الذنب يوما.. فإن رحمة الله تعالى تطل من الآية الكريمة مجددة الأمل فى غفران الذنب.. متى أفاق المذنب.. وتاب وأناب..

وفى الوقت الذى يجاهد فيه الفساق من العشاق بمعاصيهم فإن المتقى ينهض من كبوته.. مستغفرا..

وفى وقائع تاريخنا شواهد تؤكد ذلك: عن ابن عمر رضى الله عنه [1].

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل من بنى إسرائيل. وكان لا يتورع من ذنب عمله.

(١) الرواية تقول: إنه سمعه أكثر من سبع مرات! (فى رياض الصالحين رقم ٣٥٦٨ ج٣ رواه الترمذى وحسنه. وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد)..

فأتته امرأة. فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها.

فلما أرادها على نفسها. ارتعدت وبكت

فقال: ما يبكيك؟ قالت!

لأن هذا عمل ما عملته. وما حملني عليه إلا الحاجة فقال:

تفعلين هذا من مخافة الله؟.. فأنا أحرى!!

اذهبي فلك ما أعطيتك.

ووالله لا أعصيه بعدها أبدا.

فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه:

إن الله قد غفر للكفل

فعجب الناس من ذلك}

لقد بلغت المأساة هنا ذروتها.. إلى الحد الذي هز الضمير المنتشي بمتعة الحرام.. فأفاق.. وعاد إلى الله تعالى تائبا.. متخذا من هذا الدرس دليلا على الطريق..يحميه من السقوط مرة أخرى..ولقد عجب الناس.. وما كان لهم أن يتعجبوا..

فليس الشأن ألا تذنب.. ولكن الشأن ألا تقيم على الذنب ونذكر هنا موقف أخت لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه..

لقدْ قالتها كلمة.. فرضها الموقف.. ولم تُلق لها بالا..وما إن قالت كلمتها حتى قامت قيامتها.. ولم تغادر المجلس حتى تصدقت بما يخفف من حدة الندم في قلبها:

قالت يوما لعزة: ما معنى قول كثير فيك: قضى كل ذي دين فوفي غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

فما كان هذا الدين؟

قالت عزة: لقد وعدته قبلة. ولم أنجزها له.

فقالت أخت عمر وكانت من النساء العابدات الصالحات: أنجزيها له. وعلى إثمها !!

ثم أعتقت أربعين جارية. لأجل قولها.. «وعليّ إثمها».

أعتقتها راضية وعلى الفور.. مع أن القضية لم تكن عشقا.. وإنما كانت حبا عذريا محكوما بالعفة المانعة:

أجل.. لقد كان حبا عذريا عفيفا كما قال الشاعر:

لا والذى تسجـــد الجباه له　　　مالى بما تحـت ذيلها خـــبر

ولا بفيها ولا هممت بـــها　　　ما كان إلا الحديث والنظر؟!

وقول الآخر:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعنى

منه الحياء. وخوف الله والحذر

*****

كما أن المتقى مُعبَّأ النفس بالمشاعر الإنسانية.. ليكون بها مستعدا للحركة المباركة فى مجالات الخدمة العامة.. فقد كان كذلك ضابطا لنفسه.. كاظما لغيظه.. وأيضا كان شديد الحساسية عميق الشعور بالذنب إذا وقع منه.

وهو دائما فى رباط دائم مع نفسه الأمارة التى تريد أن تورده المهالك.. ليظل محافظا على رصيده من الحسنات حتى لا تطغى عليها السيئات.. فيما يشبه أن يكون نقدا ذاتيا.. إسهاما منه في وضع حد لروح العدوان.. ليكون من بعد جديرا بالغفران.. من حيث لم يكن عصيانه تمردا ولا كبرا:

ذلك بأن مصدر المعصية هو الذى يحدد مصير المذنبين:

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: [من كانت معصيته فى شهوة.. فأرجو له التوبة: فإن آدم عليه السلام عصى مشتهيا.. فغفر له.. أما إذا كانت معصيته فى كبر.. فأخش عليه اللعنة: فإن إبليس عصى مستكبرا.. فلعن.. وكيف لا.. وهو يسير على خطى إبليس.. ويتتلمذ علي يديه فى فنون الكبر والاستهزاء بالبشر] وفى مجال التطبيق نذكر ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال:

جاأتنى امرأة فقالت: هل لى من توبة؟ إنى زنيت. وولدت. وقتلته. فقلت: لا.. ولا نعمت العين. ولا كرامة !! فقامت وهى تدعو بالحسرة.

ثم صليت مع النبى ﷺ. فقصصتُ عليه ما قالت المرأة وما قلت لها. فقال رسول الله ﷺ:

«بئسما قلت! أما كنت تقرأ هذه الآية: ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر..** ﴾ إلى قوله ﴿**إلا من تاب..**﴾

فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت: الحمد لله الحمد لله الذى جعل لى مخرجا] [1].

(1) هذا حديث غريب من هذا الوجه وفى رجاله من لا يُعرف. وقد رواه ابن جرير بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول: يا حسرتا!! أخُلق هذا الحسن للنار]

وعند ابن جرير:

أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ .للبها فى جميع دور المدينة. فلم يجدها.

فلما كان فى الليلة المقبلة جاءته. فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ .
فخرت ساجدة وقالت: الحمد لله الذى جعل لى مخرجا وتوبة مما عملت. ثم أعتقت جارية كانت معها.. وابنتها. وتابت إلى الله عز وجل]

وتأملوا معى: إنها ليست جريمة واحدة.. ولكنها جريمتان.. كل جريمة هى أكبر من أختها: فقد زنت.. ثم قتلت وليدها..

لكن ذلك كله لم يستأصل من قلبها كل عناصر الخير.. بل بقيت منه هناك جذور ضاربة فى الأعماق.. وها هى ذى تثمر هذه التوبة التى حملتها على أن تعلن جريمتها.. راغبة فى الخلاص.

وإذا كان هناك ما هو أمر من ذنبها فهو أن نغلق الباب فى وجهها.. لاسيما وقد زنت نادمة عازمة على ألا تعود..

وذلك مالم يفطن إليه الصحابى الجليل.. فردها.. بل وعلى الرد مزيد من التأنيب.. أو من التعذيب.. عندما لم يكتف بقوله: لا..

وإنما أضاف.. ولانعمت العين ولا كرامة.. فإذا تصورنا أن المرأة مع ذلك كما أشارت: على جانب كبير من الجمال..

استشعرنا ما يمكن أن يحدث من نكسة قد يستغلها الشيطان.. لإغراء الذباب أن يساقط على العسل المعروض!

والملفت للنظر هنا أن الصحابى.. العالم.. أبا هريرة رضى الله عنه غاب عنه الحكم الذى يتراءى صراحة من خلال الآية الكريمة:

﴿.. إلا من تاب﴾

وذلك شاهد يوضح أنه لا كبير فى العلم.. فقد يخطئ العالم..

(!) هذا حديث غريب من هذا الوجه وفى رجاله من لا يُعرف. وقد رواه ابن جرير بسنده بنحوه وعنده [فخرجت تدعو بالحسرة وتقول: يا حسرتا!! أخُلق هذا الحسن للنار]

واستشعار هذه الحقيقة يعفينا من رذيلة النيل من علماء أجلاء اجتهدوا فأخطأوا. . ثم رجعوا لما وُجد النص القاطع حبل الاختلاف.

ولقد كان رده ﷺ قاطعا. . عاتبا على أبى هريرةأنْ غابت الآية الكريمة. .

ولئن كان رده عليه الصلاة والسلام موجعا. . عندما قال له: بئسما قلت. . فلأن القضية المعروضة يتوقف عليها مصير إنسان يولد بالتوبة من جديد. .

وأيضا لما يترتب على قبول التوبة من اثار ظهرت فى: سجود المرأة. . ثم فى حمدها الله تعالى أن جعل لها من ظلمة الذنب مخرجا. .

ثم توجت ذلك كله بعتق رقبتين. . جارية وابنتها. . فضلا عن تحررها من ذنبها. . فكسب المجتمع - بالمرأة التائبة - أحرارا ثلاثة. . يرصدون حياتهم الحرة من اليوم. . فداء لدين كان معهم فى محنتهم. . وفتح صدره: لثلاثة. . يبكى الشيطان حسرة عليهم. . بينما يضحك المسلمون. .

لأن التائبين قادمون. .

*****

في مجلس مبارك من مجالس العلم قال الشيخ:

ما علمت أحدا سمع بالجنة والنار.. تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكرٍ أو صلاة. أو قراءة أو إحسان.

فقال له تلميذه الفتى: إنى أكثر البكاء فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك. وأن المدل لا يُرفع عمله فوق رأسه.

فقال التلميذ للشيخ:

أوصنى: قال: دع الدنيا لأهلها.. كما تركوا هم الآخرة لأهلها.

وكن فى الدنيا كالنحلة: إن أكلت أكلت طيبا. وإن طعمت طعمت طيبا. وإن سقطت على شىء لم تكسره.. ولم تخدشه!

ويريد الشيخ أن يقول: إن «حضور» الجنة والنار.. حضورهما الدائم والحاسم فى قلب المسلم.. يفرض عليه ألا ينام لحظة من زمان.. عن طلب الجنة والفرار من النار.

ومن لم يفعل فقد ظلم نفسه. ويقف تلميذ من الأوابين الأواهين معلنا عن خطته فى تحقيق هذه الغاية الكبرى.. والتى لخصها فى البكاء الموصول.. رغبة فى هذا المأمول..

ورغم أن البكاء وارد فى حس العابدين الخاشعين.. إلا أن فى الطريق مخاطر ينبغى التأهب لمواجهتها.. ثم تجاوزُها..

وخلاصة هذه المخاطر:

أولا: الغرور..

وثانيا: حب الدنيا..

ومن ثم تجىء النصيحة فى الصميم عندما يوضح له أن العبرة بما وقر فى

القلب: إنه الرصيد الباقى.. بغض النظر عن الضحك.. وعن البكاء..

وإذ يحذره من الركون إلى الدنيا.. فإنه يحرضه على أن يؤثر الآخرة على الأولى.. على الأقل كرد جاد منصف على الذين يؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى.

ثم.. إن الشيخ يفتح بصر تلميذه على حقيقة هى: أنه إذا تجاوز عثرات الطريق.. فتاب... وصحت توبته.. فإن دوام البكاء لن يحميه من مخاطر الطريق بعد التوبة.. وهى مرحلة أشق وأقسى..

فليكن خوفه بعد التوبة ـ وبخاصة من فتنة الغرور ـ ليكن أربى فى صدره.

قال ابن الجوزى فى صيد الخاطر [1].

[ينبغى للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه.. وإن تاب منها وبكى عليها.

وإنى رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة .. وكأنهم قد قطعوا على ذلك.. «واطمأنوا».. مع أن هذا أمر غائب..

ثم إنها على فرض غفران الذنب.. فقد بقى الخجل منها.

ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه جاء فى الصحاح: أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام فيقولون: إشفع لنا: فيقول: ذنبى.

وإلى نوح عليه السلام. فيقول: ذنبى وإلى ابراهيم.. وإلى موسى.. وإلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم.

فهؤلاء: لو اعتبرت ذنوبهم.. لم تكن ذنوبا على الحقيقة. ثم إنها.. إن كانت.. فقد تابوا منها واعتذروا. وهم بعد على خوف منها. ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع.

وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

واسوأتاه منك.. وإن عفوت !!

---

(١) ص٤٧٤، ٤٧٥ بتصرف يسير.

فاعف والله لمختار الذنوب، ومؤثر لذة لحظة تبْقى حسرةً لا تزول عن قلب المؤمن.. وإن غُفر له. فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلا.

وهذا أمر قلَّ أن ينظر فيه تائب أو زاهد. لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة. وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل} ا.هـ

ولقد كان لله تعالى عباد.. طالما قاوموا فى أنفسهم نزعة الغرور..

حفاظا على ثمرات التوبة أن تذبل

ومنهم ذلك القائل:

اللهم: مارفعتنى درجة عند الناس.. إلا أنزلتنى درجة فى نظر نفسى. وما أعطيتنى عزة.. إلا أعطيتنى شعورا بذل نفسى!!

ومن كان هذا شأنه.. فهو العزيز.. طالما أحس بالذلة بين يدى ربه.. ولن تنبت فى نفسه أعشاب غرور تخلص منها بهذه المراقبة الدائمة.. والتى تشكل فى قلبه حارساً لا ينام..

*****

عندما يُفيق العاصى من سكرة الذنب نادما . . فواجبنا أن نقف إلى جانبه . . حتى ينهض من كبوته راشدا . ذلك بأن الشيطان المريد واقف له بالمرصاد . . يعز عليه أن يفلت الصيد من يده . .

وإذن فلنكن معه على عدونا المشترك . . إنقاذا له من كيده والذى يدق حتى يوقع الفريسة فى الحفرة . . وهو لا يدرى :

أرأيت إلى الشيطان . . عندما قال للفتى : تخير لنفسك ما يحلو : إما أن تشتم زوجتك . . وإما أن تقتل خادمك . . وإما أن تشرب الخمر . . ويشرب الفتى الخمر . . فيذهب عقله . . فيشتم الزوجة . . ثم قتل الخادم . .

وهكذا . . وبأقل التكاليف . . يُجهز على الضحية . . مما يفْرض علينا أن نخف لنجدة العاصى فى محنته . . وذلك حقه علينا . .

قال «خلف بن هشام» : كنت أقرأ على «سليم بن عيسى» حتى بلغت يوما **﴿حم﴾** سورة غافر . فلما بلغت إلى قوله تعالى **﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾** .

بكى ابن عيسى بكاء شديداً . . ثم قال لى : يا خلف :

ألا ترى؟؟ . . ما أعظم حق المؤمن : تراه نائما على فراشه . والملائكة يستغفرون له» ! !

وتأمل إلى أى حد عظُم حق المسلم على أخيه المسلم :

فإذا كانت الملائكة فى الملأ الأعلى تُشفق عليه . . مستغفرة له . . فكم يكون حقه عظيما فى رقابنا؟

وقد يتحمل الدعاة كفلا أكبر من مسئولية الوقوف مع المذنب الراغب فى العودة إلى ربه تائبا .

إن رسالة الداعية إنسانية.. قبل أن تكون لسانية:

ليست شقشقة لسان.. أو روعة بيان. بقدر ما هى شفقه تلتمس الأعذار للناس.. وللخطائين منهم بالذات..

اقرأ الآية السابعة من سورة العنكبوت:

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون﴾

ولاحظ أنهم: مؤمنون.. وقد ترجموا الإيمان إلى عمل صالح..

ومع ذلك.. فإن لهم سيئات.. يعدهم الحق تعالى بالتجاوز عنها.. بل سوف يجزيهم أحسن ما كانوا يعملون..

فكيف لا نتعلم الدرس.. لنبْسط أيدينا.. ثم نستقبل فى حفاوة هؤلاء النادمين العائدين..

ولا يعنى ذلك التهوين من شأن العصيان.. ولن يكون تحريضا على الإثم والعدوان أبداً..

والأمر على ما يقول صاحب الظلال:

[والإسلام لا يدعو ـ بهذا ـ إلى الترخص.. ولا يمجد العاثر الهابط.. ولا يهتف بجمال المستنقع كما تهتف «الواقعية».

وإنما هو: يُقيل عثرة الضعيف.. ليستجيش فى النفس الإنسانية الرجاء.. كما يستجيش فيها الحياء.

فالمغفرة من الله ومن يغفر الذنوب إلا الله. إنها تُخجل.. ولا تُطمع.. وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار.. فأما الذين يستهترون ويُصرون.. فهم هناك خارج الأسوار. موصدة فى وجوههم الأسوار..

وهكذا: يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى.. والرحمة

بهذه البشرية التى يعرف طاقتها.. ويفتح أمامها باب الرجاء أبدا..

ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقاتها] أ.هـ

وعلى الداعية إلى الله أن يكون للخطائين. رحمة مهداة.. ونعمة مسداة.. وسراجا منيرا.. يُخرج الله به العصاة من الظلمات إلى النور..

وإنها لنهاية سعيدة.. تلك التى صورها ذلك الأعرابى الذى ضل فى الصحراء.. فلما طلع القمر اهتدى فرفع رأسه إليه قائلا:

ما أدرى ما أقول: أقول: رفعك الله.. فقد رفعك.

أم أقول: نورك الله.. فقد نورك. أم أقول: حسنك الله.. فقد حسنك.. أم أقول: عمرك الله.. فقد عمرك.. ولكنى أقول: جعلنى الله فداك.. ياقمر..

فيأيها الداعية كن أولا شمسا: تمد الحياة بالدفء والطاقة. والضياء.. فإذا لم تكن شمسا.. فعلى الأقل: كن قمرا !!.

*****

عندما شهد رجل لرجل بالجنة قال له ﷺ :**«لا تدرى: لعله تكلم بما لا يعنيه..أو بخل بما لا ينقصه »**

وإذن.. فالميزان حساس.. والمسئولية خطيرة..ثم هو كتاب : لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.. ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا..

ولقد وعى الأبرار من أمتنا هذه الحقيقة.. حتى رهف فيهم الإحساس بهذه المسئولية إلى الحد الذى رأينا من ورعهم عجبا:

جاء الضيف قبيل صلاة العشاء.. وتحرج المضيف الذى لم يتمكن من الخروج لصلاتها كشأنه جماعة في المسجد..فماذا فعل:

دار الرجل علي مساجد البصرة جميعا لعله أن يلحق بها..لكنه لم يُحقق أمله..فلما عاد إلى البيت منكس الرأس صلاها سبعا وعشرين مرة.. لينال بذلك ثواب الجماعة..!!

والغريب أن ذلك الرجل كان فارسا.. لم تقعده الصلاة عن إشباع هوايته فى ركوب الخيل..

ولقد تذكر فى هذه الليلة أنه واحد من المتسابقين فى مباراة بين الفرسان..

وأراد أن ينطلق بفرسه.. لكنه فوجئ بآخر فارس يقول له:

لا تجهز فرسك.. فلن تلحق!!

فلما قال له: لماذا؟ قال له: لأنك لم تصل العشاء !!

وإذا بقيت هذه القمم تسبح فى خاطرنا.. علامات على الطريق..فإن ذلك لا يلغى حق الخطائين فى التماس الأعذار لهم ماداموا عازمين على الرجوع من رحلة الانحراف:

قد يكون للمخطئ أعمال جليلة.. فلا نبخسُه حقه..وقد يكون فى كيانه نواة العبقرية المختنقة بوثاق الذنب.. فلنحاول أن نحطم قيده.. لينطلق معنا.. على ذات الطريق.

ارتد عمرو بن معد يكرب.. وكان ارتداده نكسة من حيث كان وجيها فى قومه وسوف يحدث ارتداده شرخا فى البناء الكبير..

وأطل أبو بكر رضى الله عنه.. على الرجل من علٍ.. ثم عفا عنه.. لما أقبل تائبا.. تقديرا لأعماله الجليلة فيما مضى من عمره.

إن جواذب الدنيا كثيرة.. وهى مشاهدة ملموسة.. وأما الآخرة فهى: غيب محجوب عنا..

ومن ثم كانت الدنيا غلابة.. وطبعنا يقف معها ضدنا وليس العجب فى الطبع أن يغلب العجب أن يُغلب ولن يغلب إلا برفقه الخير من الرحماء..

ويعجبنى هنا ماقاله أحد الباحثين عن الحقيقة مما نحسبه دعوة إلى الرحمة بالمذنبين.. رجاء أن يكونوا من المؤمنين.. قال:{قد نرى الباحث العظيم يسهر وينقب. ويظل يخزُن معارفه وتجاربه. حتى يتحول إلى «بالون» هائل من المعرفة والتجربة: يكاد يطير من فرط ما وعى. وما حوي. ولكنك لو حاولت مسه لانفجر.. وما استطعت أن تنتفع بشىء من دفين علمه أو مخزون فنه...}

ثم يضرب الكاتب الأمثال للناس.. وكيف تكون بداية الإنسان مظلمة ثم تجىء النهاية مختلفة تماما.. مما يفرض على الدعاة مزيدا من الصبر.. ومزيدا من الحكمة.. وصولا بالإنسان إلى ما قدر له من تفوق: قال:{وفى كثير من الحالات تجد النتائج مختلفة مع المقدمات والنهايات تجىء متناقضة مع البدايات:

وذلك عندما يتدخل الكريم الحكيم سبحانه لترتيب هذه النهايات،وتاريخ العباقرة والمصلحين ملىء بهذه الغرائب؛فبداية حياتهم كانت تعطى صورة بشعة لما ينتظرهم فى مستقبل حالك.ولكن سُرعان ما تبدل الحال. ليصلوا من بعد إلى القمة:

لقد دُفع بالإمام محمد عبده إلى الكتَّاب.. لكنه يفر من الكتاب.. مؤثرا العمل مع أبيه فى المزرعة.. لكنه صار من بعد إماما..

وفى الغرب: كان «إديسون» يهرب من المدرسة مؤثرا أن يقوم بعملٍ آخر لم

يؤهل له.. حتى وصفه أحدهم بأنه «بيضة فاسدة» لكنه صار أكبر مخترع فى العالم.

ويرحم الله ابن عطاء الله السكندرى حين قال: [لو تأمل المتأمل.. لوجد أن النعمة عين النقمة. وأن النقمة عين النعمة]

وحين يعطى الداعية المدعو حقه من : الدراسة.. والرفق.. والحنان.. فإنه يضيف إلى طابور العاملين رائدا جديدا.. يصير بالتسامح جنديا فى كتيبة الإيمان.. الذين: إذا عزموا.. لم يترددوا. فإذا مضوا.. لم يلتفتوا.. وإذا توقف بهم ركب الطبع ميلا إلى الدنيا.. ضجوا.. ثم فروا إلى الله مولاهم الحق.

*****

إذا كان الإنسان فقيرا إلى الله تعالى. . فى غناه. . فكيف لا يكون فقيرا إليه سبحانه فى فقره؟

وإذا كان جاهلا. . فى علمه. . فكيف لا يكون جاهلا فى جهله، ضعيفا. . فى قوته؟

إنه إذن محتاج إليه سبحانه وتعالى. . ودائما. . وبخاصة عندما يتورط فى الذنب الكبير

إنه فى حاجة إلى العزيز. . أبدا. . العليم. . أبدا

وهكذا المتقون دائما: إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون. . إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله. . ذكروه. . وعلى الفور: استغفروه. . استغفروه وفى وعيهم حقيقة تفرض نفسها وهى: ومن يغفرُ الذنوب إلا الله؟!!

ذلك بأنه كما يقول ابن القيم [لكل اسم من أسمائه أثر من الآثار فى الخلق والأمر. . لابد من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق. وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم][1].

فإذا ذكر المتقى. . المذنب. . إذا ذكر ربه بصفات الجمال. . كان الرجاء. .

وإذا ذكره بصفات الجلال كف الهوى. . ثم هب مستغفرا مقرا بذنبه بعدما امتلأ بمشاعر الندم. . على ما ارتكب فى حق من تصور عظمته. . وقدرته. . ونعمته. .

ولقد اهتم القرآن الكريم بالذكر. . لما له من أثر فعال فى إعداد المسلم ليكون على صلة دائمة بربه سبحانه وتعالى. . فلا تستذله المعصية. . وليظل متجدد الحيوية دائما. . متمثلا روح الإسلام الأبية على الإستسلام إلا للحق.

ولقد جاءت تشريعات الإسلام معينة على ذلك: فالأرض كلها مسجد. . تعبد

(١) مفتاح دار السعادة: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

الله فيه.. وفى أى وقت..ثم تدعوه بأى شئ.. حتى حبل ناقتك..

إنها عبودية: لا يحدها مكان.. ولا يحتويها زمان..ولا تكون كذلك إلا بالذكر..وبالذات.. عند المعصية..

ولقد كان سلفنا الصالح يتداوون بالذكر.. ولو فتروا عنه.. لانتكسوا. أرأيت إلى الذكر بعد الفراغ من مشاعر الحج.. وكيف كان تصميما من المؤمن على أن يظل فى الحصن الآمن بذكره تعالى.. ذكرا حدد ابن تيمية معالمه عندما منع الذكر بالاسم المفرد: الله.. ومن قال هو فقد أبعد فى البدعة..

ذلك بأن الإسم المفرد لا يتعلق به نفى ولا إثبات.. أى فلا حكم له.ومن أجل ذلك.. فليس ذكرا.

إنما الذكر:الله أكبر مثلا.. لأن له معنى مفيدا

وإذا كان لذكر الله تعالى هذا الأثر المبارك فى قلب الإنسان .. فمن تمام الفائدة أن نقلب الصفحة لنرى كم تكون الحياة كئيبة إذا خلت من ذكر الله تعالى..

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى:**﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا...﴾**[1] .

ويعنى ذلك ارتباط الذكر بوضع الأمة الاقتصادى: انتعاشا وركودا.. وذلك جزاء من نسى:

﴿من يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ [2].

يقول ابن قيم الجوزية:

[أخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشيطان إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكر الرحمن الذى أنزله على رسوله.

فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض الله له شيطانا. يقارنه فيصده عن سبيل ربه. وطريق فلاحه.

---

(١) طه : ١٢٤ . (٢) الزخرف : ٣٦ .

وهو يحسب أنه مهتد.. حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه. وعاين هلاكه وإفلاسه. قال «ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين..}

وأين هذا الشقى ممن صحب القرآن.. وهو خير الذكر.. فاطمأن به قلبه.. فحسن عمله. وتحقق أمله؟

إن الأنس طائر خفاق الجناح.. وإنه ليرفرف على باب القلب.. فإذا وجده عامرا بالقرآن.. بالذكر. .دخل واستقر هناك..

وكما يقول المرحوم د. محمد جلال:

{إن قراءة القرآن. واقتناء المصحف ليصب في مزاج الأمة طاقة وثورية.. تفر بها من ثقافات ضحلة خبيثة تريد صرمها عن فاعلية القرآن. .فعودى إلى القرآن.. يا أمة القرآن: عودوا إليه أيها المسلمون: وعندئذ .. ستجدون أنفسكم.. وتمتلكون وجودكم}

من توجيهات ابن دينار رحمه الله:

[لو أن الملكين اللذين ينسخان أعمالكم غدوا عليكم يتقاضيانكم أثمان الصحف التى ينسخان فيها أعمالكم.. لأمسكتم عن كثير من فضول كلامكم.

فإذا كانت الصحف من عند ربكم.. أفلا ترجعون على أنفسكم]؟

يعنى أفلا تعودون إلى أنفسكم تناقشونها الحساب.. فلعلها أن تتوب.. لاسيما والباب مفتوح.. يستقبل النادمين..

فلماذا الإصرار على الذنب.. بينما دواعى التوبة تناديكم.. ومن مكان قريب؟

إن الآية الكريمة تقول:

﴿**ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾

والصيغة تنفى أن يكون هناك غافر إلا هو ..سبحانه..ويعنى ذلك:

أ ـ سعة رحمته..

ب ـ وإذن .. فهى رادعة عن اليأس.

جـ ـ ثم هى تحريض على التوبة

د ـ بقدر ما هى تطييب لنفوس الخطائين.. ليتخذوا قرار العودة مطمئنين.

وقد يتخذ المذنب قرار التوبة.. لكن تناوشه وساوس من نفسية تضخم ذنوبه..

ولكن الرد الحاسم يأتيه على لسان رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة»[1] .

ذلك بأنه: لا كبيرة مع الاستغفار.. كما وأنه لا صغيرة مع الإصرار. ويمنعك من الإصرار تذكرك يوم الامتحان.. وإنه امتحان لو تعلمون عظيم:

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

وكما يقول علماؤنا: امتحان نعرف فيه الأسئلة.. لكن.. لكننا لا نعرف الإجابة. وأيضا: لا نستعد لها...امتحان.. لا تأجيل فيه.. ولا استثناء.. ولا التماس.. والمراقب فيه من يعرف السر وأخفى!!

وقد سبقنا على الطريق ممن استعدوا لهذا الامتحان سحرة فرعون الذين آمنوا.. والذين حكي القرآن عنهم قولهم: ﴿ **إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (1)

[فلم يذكروا فى هذا المقام إلا خطاياهم السابقة. ولم يدلوا على الله بسبقهم إلى الإيمان.. ولكنهم قدموا الخوف على الرجاء. وأعلنوا الطمع فى مغفرة الله لهم ما سبق منهم من فعل السحر وغيره]

وما يزال ابن الجوزى حاديا لنا على الطريق.. فلنتبعه.. ولنحاول تخليص أقدامنا من الوحل.. فنتوب.. ولا نصر.. قال:(2).

[من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله عز وجل. فإنه ما من عبد أطلق نفسه فى شيء ينا فى التقوى وإن قل إلا وجد عقوبته عاجلة وآجله].

ومن الاغترار أن تسيء.. فتري إحسانا.. فتظن أنك سومحت وتنسى[من يعمل سوءا يجز به] (3).

إن من هفا هفوة لم يقصدها. ولم يعزم عليها قبل الفعل.. ولا عزم على العود بعد الفعل.. ثم انتبه لما فعل.. فاستغفر الله .. كان فعله.. وإن دخله عمدا فى مقام خطأ.

إنه كالسكران: فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله. فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التى كانت غلطة لم تقصد فهذا معنى **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم..﴾** فأما المداوم على تلك النظرة - إلى الحرام - المصر عليها فكأنه فى مقام المتعمد المبارز بالخلاف. .فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره.

واعلم أنه من أعظم المحن: الاغترارُ بالسلامة بعد الذنب.. فإن العقوبة قد

---

(1) الشعراء :51.

(2) صيد الخاطر :211 وما بعدها بتصرف يسير.

(3) النساء : 123.

تتأخر. وهأنذا أنادى من على الساحل: احذروا لجة البحر. ولا تغتروا بسكونه. وعليكم بالساحل. ولازموا التقوى. فإن العقوبة مرة. وبالله لو نمتم على المزابل مع الكلاب فى طلب رضا المبتلى كان قليلا فى نيل رضاه. ولو بلغتم نهاية الأمانى من أغراض الدنيا مع إعراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكا.. وعافيتكم مرضا.. وصحتكم سقما.. والأمر بآخره.. والعاقل من تلمح العواقب.. وصابروا - رحمكم الله - هجير البلايا.. فما أسرع زواله.. والله الموفق.. إذْلا حول إلا به.. ولا قوة إلا بفضله.

«رب أعنى. ولا تعن على. وانصرنى ولا تنصر على. وامكر لي ولا تمكر على. رب اجعلنى لك شكاراً لك ذكارا لك رهابا لك مطواعا لك مخبتا. إليك أواها منيبا. رب تقبل توبتى واغسل حوبتى. وأجب دعوتى. وثبت حجتى. وسدد لسانى. واهد قلبى. واسلل سخيمة صدرى » [1].

*****

(١) من دعاء النبى ﷺ كما رواه ابن عباس رضى الله عنه.

إذا كان من واجب المتقى.. إذا اقترف ذنبا أن يعود.. ومن قريب.. فإن من حقه علينا أن نعينه على النهوض وقد سقط على الأرض.. ثم نزامله فى مرحلته الجديدة على طريق العودة.. ليصل معنا إلى البر سالما..

فإذا استقر به النوى بعد العذاب.. عذاب الانحراف.. فقد وجب عليه.. أن يكون فى عون المذنبين الاخرين.. بلا من ولا أذى يلحقه بهذا الذى عصى ربه فغوى.. فكذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم.

ورد الجميل أن تقف إلى جانب العاصى الراغب فى النهوض. ولا تكن مع الشيطان عليه.

ذكروا أنه فى دولة أجنبية - رسبت طالبة فى الإمتحان.. لأنها ذكرت رأيا فى قضية.. ثم لم تذكر مصدرها العلمى.

وهكذا يعاقبون.. وبقسوة.. على النقير والقطمير.. ثم يغمضون العيون على الحظير..

فهذه الفتاة نفسها تمشى متبرجة بزينة.. تعرض لحمها الطرى على السائرين.. لكن ذلك شىء عادى.. فليس للعرض ثمن فى دنيا المتناقضات !

ولكن الإسلام شىء آخر: فهو يقدر الطبيعة الانسانية.. فاتحا ذراعيه لكل تائب مهما كان ذنبه عظيما.. ويتم ذلك طبق مقاييس دقيقة.. تراقب.. وتحاسب.. لكنها فى النهاية تستقبل العائدين.. بل وتعينهم على أن يكون العود حميدا.. وإذ يقسو الإسلام أحيانا ولكنها القسوة الحازمة.. التى قد تتغاضى عن الصغير.. لكنها تحاسب على الكبير.. لابدافع التشفى.. ولكن بدافع الحزم الذى يردع النوازع المنحرفة حتي تستقيم على جادة الصواب.. على أن يتم ذلك كله فى ظل من الرحمة.

مضى الوالد الشيخ مع ولده فى الطريق الواسع..وفجأة.. لمح الإبن الصغير من بعيد رجلا معروفا بسوء الخلق..

وعلى الفور: أشار على والده بتعديل خط السير.. حتي لا يلتقيان بهذا الرجل.. سيئ السمعة. ولكن الوالد الحكيم لم يستجب لولده.. ومضى فى نفس الخط.. حتى صار وجها لوجه.. أمام هذا الرجل المنحرف..

وقال هذا المنحرف للوالد وولده: أنا أستحى من الاقتراب منكما.. لما أعلمه من طهارتكما.. ومن سوء خلقى؟

وكان رد الوالد مختصرا إذ قال له: فلعل حياءك أن يمنعك يوما.. ثم التفت إلى ولده قائلا: ولعل غرورك أنْ يُرد بك !

وفى لمحة خاطفة قال للعاصى: يارجل... إذا كنت تستحى منا.. أفلا يكون حياؤك من الله تعالى أحق؟ ولقد كان الدرس بليغا.. وضع الرجل فى دوامة من الأفكار.. سوف تلفظه على شاطئ الأمان.. بعدما هزه الوالد بالجملة المركزة التى أصابت قلبه فى الصميم!.

وهكذا كان المتقون: يبذلون فطرة الإيمان.. ومن صورا لبذل أن يدلوا الحيارى على الطريق:

خرج هارون الرشيد بعد عام من حبس المطر - إلى الصحراء مع قومه ومر بالقوم رجلٌ فقال لهم: هل غاب عنكم فى بغداد.. فجئتم تطلبونه فى الصحراء؟!!

فلما بلغ الخليفة ذلك أرسل فى طلبه.. فلما جىء به قال له الرشيد: أنت رجل بينك وبين الله سريره. فادع الله لنا..

فما كان من الرجل إلا أن صلى ركعتين.. ثم سلم.. واستغفر.. وطلب من الناس أن يستغفروا.. فأنزل الله تعالى المطر !! أنزله تعالي مدرارا بعد هذا الدرس البليغ.. من رجل يغيب فى الزحام لا يعرفه أحد.. ولكنه.. أعان القوم على أمر الله.. واضعا أقدامهم على طريق الخلاص ولا يزال باب الأمل مفتحا.. لمن أراد أن يدخل..

ووسائل الدخول إلى ساحة الرخاء والصفاء.. كثيرة.. وقد نبه إليها النيسابورى فى قوله:

[قولك البسملة.. يفتح لك باب الذكر

وقولك: الحمد لله رب العالمين.. يفتح لك باب الشكر.

وقولك: الرحمن الرحيم.. يفتح لك باب الرجاء.

وقولك: مالك يوم الدين.. يفتح لك باب الخوف

وقولك: إياك نعبد وإياك نستعين.. يفتح لك باب الإخلاص.

وقولك: اهدنا الصراط المستقيم.. يفتح لك باب الدعاء..

وقولك: صراط الذين أنعمت عليهم.. يفتح لك باب الاقتداء بالأرواح الطاهرة.

إن هذه تذكرة.. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا

*****

يخطف الشيطان الخطفة.. ثم يخنس هاربا..

والخطفة هنا هى أخ لنا فى الله.. نزغه منه نزغ.. فمضى معه فى الأرض حيران.. فأين الشهاب الثاقب.. أين نحن من هذا الغافل الذاهل. القابع فى الكهف المظلم.. لا يجمل بنا أن نقف مكتوفى الأيدى.. بل لابد من أن نقف إلى جانبه.. ردعا للشيطان.. وعودا بالتائب إلى العُش المهجور. إنها إذن معركتنا اليومية مع الشيطان.. الذى ينشب أظفاره فى عنق الفريسة.. والفريسة واحد منا..

فلنشمر عن ذراع في محاولة لإنقاذه فى هجمة مضمونة النتائج.. والتى سجلتها ريشة الأديب القائل:

{يا أيها الباطل: لا يخدعك ذلك الانتصار.. فإنما مصير صرح الرمل أن ينهار.. وما تطول صولة لليل.. إلا وبعدها يطأطىء الجبين.. للنهار}

إن الخالق سبحانه وتعالى يعامل بقانون: الرحمة فوق العدل.. فلماذا لا يكون المخلوق كذلك؟

لقد غضب الكون كله يوما على الإنسان قالت الأرض : إئذن لى أن أخسف به.. فقد طعم خيرك. ومنع شكرك.

وقالت السماء.. والبحر.. والجبال.. مثل ذلك..

فقال لهم سبحانه وتعالى: اتركوه.. فإنكم لم تخلقوه.. ولو خلقتموه.. لرحمتموه.. اتركوا العصاة:

فإن تابوا.. فأنا حبيبهم.. وإن لم يتوبوا.. فأنا طبيبهم !!

وكأنما يقول الكون بلسان الحال: إن الإنسان لكنود.. غادر.. خائن يأكل خيرك.. ثم يشكر غيرك..

ولكن الرحمن الرحيم يقطع على الكون أمانيه.. وإذا قسا الكون على

الإنسان فكيف تقسو أنت أيها الإنسان.. وأنت والد العاصى.. أو أخوه.. أو جاره.. أو صديقه؟

إن روح الإسلام لترفض التشفى.. وبنفس القوة تفتح طريق العودة للراغبين..

أرأيت إلى الزانى.. وإلى أى حد وقف الإسلام إلى جانبه لا حبا فى المعصية ولكن إنقاذا لعاص يولد بالتوبة من جديد:

لقد يعترف الزانى بالزنا.. ويقول له الرسول ﷺ :

«لعلك قبلت وما إخا لك زنيت»..

ثم: «**هل دخل هذا منك.. فى هذا منها؟**»

ويحدث هذا فى مجالس متعددة.. قد تبلغ أربعة..

فربما كان فى تعدد المجالس ما يذكره بحقيقة ما صنع وكيف اشتبه عليه فلعلها كانت جارية ولده أو لعله شريك فيها.. أو ظن أنها امرأته وقد تكذ به المرأة.. فيسقط الحد ولو رجع واحد من الشهود.. سقط الحد.. ويجلد الشهود جميعا بحد القذف!

إن إبليس وجنوده ليسرهم أن تجهز على الضحية ليكسب هو القضية.

لقد لاحظت أن آية المسارعة إلى المغفرة والجنة مسبوقة بالنهي عن الربا.. ذلك بأن أعداءنا يتسلحون بالمال فى محاولة لاستذلالنا بالربا.. ولن ننتصر عليهم إلا بالتقوى..

ومن التقوى أن يخف لنجدة العاصى.. قبل أن يكون: فى يد الشيطان سلاحا يشهره فى وجوهنا

فلنكن مع التائب جبهة واحدة لنكن من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدي وآتاهم تقواهم**﴾

وهذا هو أجرنا.. ولنعم أجر العاملين. الذين يؤتيهم الله تقواهم نفس

تقواهم.. ماعملوه يجدونه:

ويعنى إيتاء الله المؤمنين تقواهم: أنه سبحانه: كما قال علماؤنا:

١- يُعرفهم بها.. وبكل أفرادها

٢- يحببهم فيها

٣- يُعينهم عليها

٤ - يزيدهم استمساكا بها.

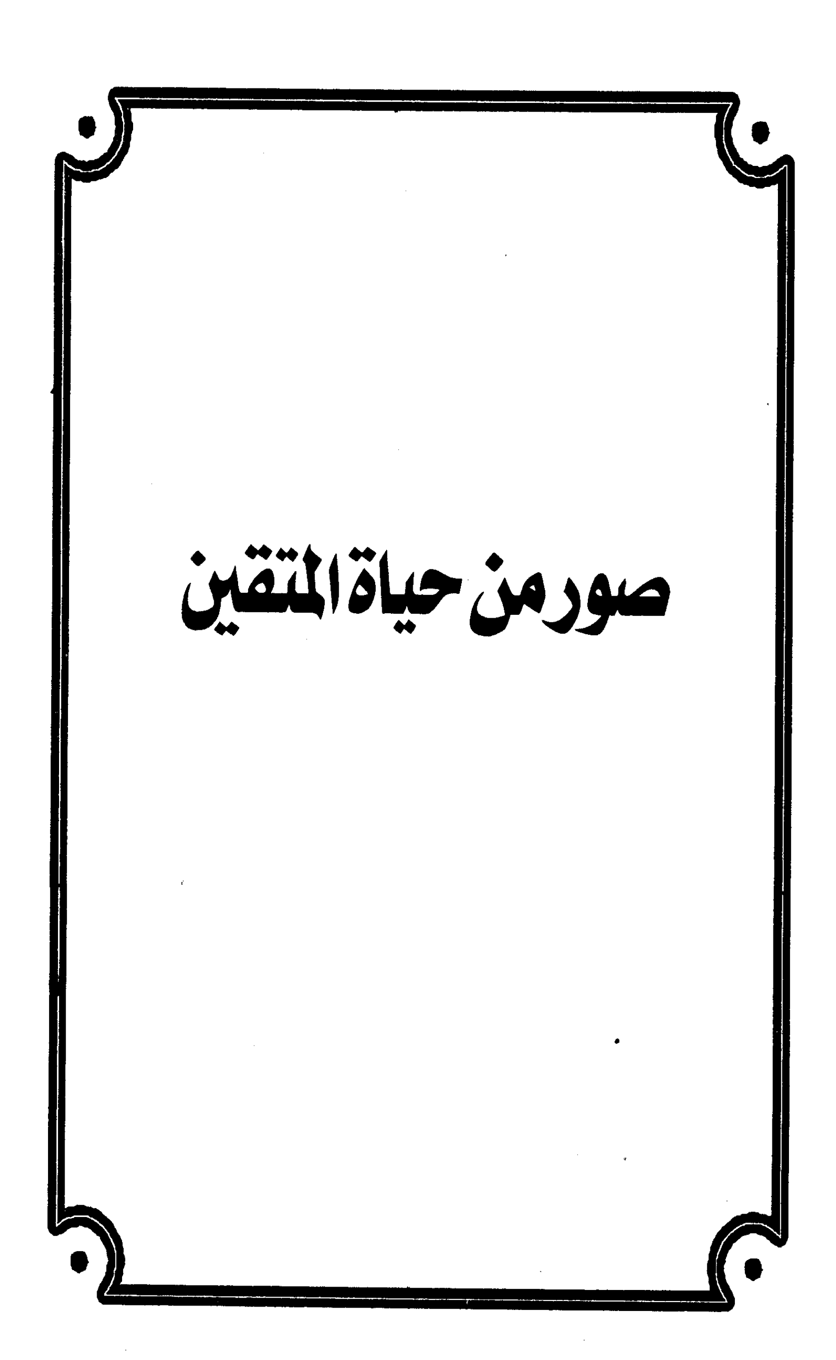
٥ - ثم يجازيهم عليها..

ولنعم أجرُ العاملين.

أما بعد: فقد كان بعض الصالحين يدعو ربه فيقول: اللهم لا تعذب لسانا يخبر عنك ولا تعذب عينا تنظر إلى علوم تدل عليك. ولا تعذب قدما تسعى فى خدمتك. ولا تعذب يدا تكتب حديث رسولك.

رب لاتدخلنى النار.. فقد علم أهلها أننى كنت أذب عن دينك !!

*****



صور من حياة المتقين

روى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أنه قال:

مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل غيره - وهو أبو ذر- **«ما رأيك فى هذا؟»**

قال: رجل من أشراف الناس.. هذا والله حرى إن خطب أن ينكح. وإن شفع أن يشفع.

قال: فسكت ﷺ، ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: **«ما رأيك فى هذا؟»**

فقال يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين حرى إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يشفع..

فقال ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»**

يقولون: فى الزحام تختلط الملامح.. ولا تستبين من خلال النظرة المجردة لكن الداعية الحكم يستطيع أن ينفذ ببصيرته إلى الأعماق.. ومن وراء اللحم والشحم ليدرك الحقيقة بالبصيرة بعد أن عجز البصر عن إدراكها..

ومن دروس الموقف هنا:

إنه مهما كانت نظافة الظاهر.. فإن هناك أمورا تدق عن فهم الإنسان..

ولما كان الحكم على المؤمن مهما.. وكان الخطأ فى تقديره جسيما قد يجرىء السفهاء عليه..

لما كان الأمر كذلك كان لابد من هذا الدرس العملى.. تحريرا للنفس من الانبهار بالمظاهر.. وما يترتب عليه من آثار..

وهذا ما أراد ﷺ تدريب الصحابة عليه.. ليصح فى أيديهم المقياس.. فرارا من ضغوط البيئة التى تفسد فيها ملكة والتمييز بين الخبيث والطيب فتختلط المعالم.. ويتوه الدليل..

ولك أن تتصور ضغط البيئة هنا من قسمه أن هذا الغنى حرى أن تكون له الصدارة..

وفيما يتعلق بالفقير لم يقسم.. كأن وضعه هذا المهين.. وضع ثابت لا يحتاج إلى دليل. ولا إلى تأكيد.

إن المظاهر قد تخدعنا أحيانا .. فلا نستبين ملامح الحقيقة الغائبة هناك فى ضباب من الشهوات والشبهات..

والمفروض أن قيمة العمل .. ومركز الإنسان .. إنما ينطلق أساسا من باطنه.. من قلبه .. من نيته..

ألم تر إلى أصحاب الصخرة لما قرروا أن يتقربوا إلى الله بما عملوا من خير فى سالف أيامهم؟

لقد كانت أعمالهم فى ذاتها ضخمة بالمقياس الاجتماعى.. لكنهم لما سألوا الله الفرج لم يسألوه تعالى بحجم العمل ووزنه الاجتماعى لكن أحدهم كان يقول: اللهم إن كنت فعلت هذا العمل ابتغاء وجهك ففرج عنا!

فليس المهم حجم العمل. وأهم منه: لمن تقدم هذا العمل؟

ونذكر هنا موقف هذا الرجل الذي تميز بين الصحابة بشجاعته فى منازلة الأعداء: لكن الرسول ﷺ قال بشأنه: هو فى النار!!

ولقد تحركت غريزة حب الاستطلاع فى قلب صحابى جليل فتابع هذا البطل.. فى محاولة لحل هذه المعادلة الصعبة.. إذ كيف مع هذه البطولة يكون فى النار؟

ولقد كانت المفاجأة مذهلة عندما وجده يصاب بجرح .. فلم يصبر عليه فثبَّت سيفه بين ثدييه.. فمات!!

فكبر الصحابى.. ثم أخبر الرسول ﷺ والذى قال: أنا رسول الله!

ولك أن تعجب من هذه المفارقة العجيبة .. إذا ما قلبت الصفحة فإذا أنت أمام رجل يعلن إسلامه .. ثم .. وفى نفس اللحظة يدخل المعركة مخلصا .. فيرزق الشهادة .. فيدخل الجنة .. مع أنه لم يصل لله ركعة واحدة!.. وهكذا: درهم من الإخلاص.. أثقل فى الميزان من قنطار من العمل...

السلعة الجيدة

والعرض الردىء

كان عمر رضى الله عنه يشكو إلى الله تعالى من: قدرة الفاجر .. وعجز الثقة: فالفاجر تاجر ماهر يحسن عرض بضاعته الرديئة .. فيقبل الناس عليها.. والرجل الثقة المؤمن تاجر فاشل .. قليل الحيلة .. تبور بضاعته .. بينما هى أجود ما فى السوق..

يقول بعض الباحثين: [يسود العالم اليوم تياران كبيران:

تيار إسلامى يحمله قوم فقراء. ضعاف . مغلوبون على أمرهم وتيار علمانى يحمله قوم أقوياء. أذكياء. طغاة . مهيمنون فجرة.

بضاعة جيدة.. يحملها تجار مساكين . حفاة . مهلهلو الثياب . لا يحسنون عرض بضاعتهم. فهم يعرضونها على الأرصفة ينام عليها الذباب. وبضاعة رديئة: يحملها تجار أغنياء أذكياء .. واسعو الحيلة .. يجيدون الإعلان عن سلعتهم.

والبضاعة الرديئة هى الرائجة المنتشرة . والسائدة بحكم ذكاء أصحابها. وعظم سلطانهم. وتلك هى البضاعة العلمانية.

والبضاعة الجيدة: بائرة بحكم ضعف أصحابها. وهوان شأنهم وذلك حال الإسلام].

ونحن مطالبون بأن نكون على مستوى الإسلام فى عرضه على الناس.. ولنا فى رسول الله أسوة حسنة:

لقد أقنع الناس بالإسلام عن طريق الأسوة التى بدت أمامهم قمة فى معالى الأمور .. فأحبوا مبادئه .. لأنهم أحبوا أولا خُلقه العظيم..

بل لقد كان ﷺ ذلك التاجر الماهر الذى نجح فى مجال التجارة الدنيوية كما نجح فى تبليغ رسالة ربه: شاهد يوما رجلا طويلا عريضا .. يعرض ثوبا للبيع

فنصحه ﷺ أن يجلس . . ليتمكن من بيعه . . لأن وقوفه يُظهر الثوب صغيرا . . وعليه أن يجلس ليبدو الثوب فى حجمه الطبيعى!!

أثر القدوة:

فى أقل من ربع قرن من الزمان . . دخل الناس فى دين الله أفواجا . . وليس أصدق إنْباء بصحة هذه الحقيقة من الواقع . . لو تأملناه . .

وهو ما دعا بعض الكاتبين إلى لفت النظر إليه . . إلى هذا الواقع . .

والقول ما قالت حذام:

إنها القدوة إذن . . والمتمثلة فى الرسول العظيم . . ومن سار على دربه:
وفى تاريخنا الإسلامى شواهد على ما للقدوة من أثر:

لقد أعلنت الثورة الفرنسية مبدأ المساواة . . وحاولَتْ أن تمكِّن له . . لكن ظل حبرا على ورق . .

ولكن موقفا واحدا . . لرجل مسلم كان أبلغ فى التمكين لمبدأ المساواة إنه المغيرة بن شعبة رضى الله عنه:

لقد أحسن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه إذ أرسله هو بالذات ـ فى فتح فارس إلى رستم . . فأقبل عليه المغيرة حتى جلس معه على سريره!! فوثب عليه أتباع رستم فأنزلوه

ولكنه قال لهم: إنا يا معشر العرب: لا يستعبد بعضنا بعضا . . فظننت أنكم تتواسَوْن كما نتواسى.

وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض اليوم . . علمت أنكم مغلوبون . . وأن مُلكا لا يقوم على هذه السيرة. ولا على هذه العقول!

نماذج على الطريق:

سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنه .. سأله عن المتقين كأنه ينظر إليهم .. فقال: اتق الله وأحسن .. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فأنت ترى الرجل لا يقتنع بمجرد تعريف المتقين .. إنه يبحث عن القدوة التى يراها رأى عين .. وليس هو باحثا «أكاديميا» يريد تأليف رسالة تحدد معالمها..

وهكذا كان سلفنا الصالح..

لقد كان ﷺ مأمورا بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبله **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**.. فنحن أولى بهذا الاقتداء.

وما أكثر ما تلقى من لوحات كتب عليها: «التدخين ممنوع» .. «البصق ممنوع».

«لا تقطف الزهرة اليانعة ... ولا النبت الأخضر».

وخير من هذا كله أن يطبق القانون بقوة وحزم:

فى إيطاليا .. تهربت الملكة «صوفيا» من الضرائب .. وبعد تسعة عشر عاما كان الشرطى ينتظرها عند سلم الطائرة .. ثم قدّمت للمحاكمة.. وكفى بهذا المشهد رادعا..

وهناك أيضا .. كسر رجل فى الستين من عمره إشارة المرور.. وأمام القاضى ألحّ فى الرجاء طالبا إعفاءه من الغرامة .. لأنه وقد بلغ الستين - لم يرتكب خطأ مروريا واحدا .. ومن ثم فهو يرجو أن تظل صحيفة سوابقه بيضاء من غير سوء..

ومع هذا .. أصر القاضى على تغريمه .. لكنه - إشفاقا على الرجل - دفع الغرامة من جيبه..

فتحمله للمغرم أجدى من كسر القاعدة!

ونقرأ عن أم عجوز مقعده على مدى عشرين عاما .. طلبت من ولدها أن

يذهب إلى الإمام أحمد رضى الله عنه يسأله أن يدعو لها.

أطاع الفتى أمه .. وذهب إلى الإمام .. ثم طرق الباب قائلا:

رجل أمه كذا .. سألته أن آتيك رجاء أن تدعو لها.. وسمع الفتي الإمام من خلف الباب يتمتم بكلام المغضب! ثم قال له: قل لها تدعو هى لى!

وانصرف الفتى فى أدب.. ولحقته فى الطريق امرأة فأخبرته بأنها سمعت الإمام يدعو لأمه !

فلما مشى إلى أمه .. وجدها لدى الباب .. باب الدار .. تمشى على رجليها؟!!

ومن معانى موقف الأم:

خمس قرن من الزمان مقعده .. لكن اليأس لم يعرف إلى قلبها سبيلا.. وظلت شعلة الأمل متوقدة فى فؤادها..

ويعنى ذلك أنه .. رغم قرار الأطباء الذى كان قاسيا .. ظلت تنتظر الفرج وانتظار الفرج من أفضل العبادات .. لماذا؟

لأنه:

أ - استدبار للخلق.. واستعلاء على الأسباب.

ب - ثم ثقة مطلقة بالخالق سبحانه وتعالى

وأكرم بها من عبادة تربط القلب دائما بالله تعالى انتظارا لفرجه القريب .. فإذا القلب سعيد حتى فى خضم الفاجعة.. وهكذا الأمل فى الله تعالى: يبهج القلب الذى يعيش لحظات من ينتظر أن شيئا سعيدا سيحدث له غدا.

إنه التفاؤل إذن : ألا نستسلم لهواجس اليأس .. متذكرين دائما عظمة الله تعالى .. ونحن نمضى على الطريق .. حتى تهُون علينا مصاعب الطريق

أعلّل النفس بالآمال أطلبها ما أضيق العمر لولا فسحة الأمل

ثم هو من ناحية أخرى:

أخذ بالأسباب.. ثم التوكل بعد ذلك على الله تعالى إيمانا به وبرسوله الذى ذكر أن لكل داء دواء.

ومهما حاول الطبيب أن يقطع بالحسم خيط الأمل .. فإن الشرع يقول له .. إن لهذا الداء المستعصى دواء .. لكنك لم تهتد إليه .. تماما كهذا الرزق المرصود لصاحبه .. لكنه لم يحصل عليه لأنه لم «يدب» إليه كما قال تعالى:

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾.

أما المرض الذى لا دواء فيه فهو الحماقة

لكل داوء دواء يستطب به

إلا الحماقة أعيت من يداويها!

ولا شك أن العجوز قد عرضت نفسها على الأطباء

بلا تقدم فى الصحة .. ولكن - مرة أخرى - ما زالت تأخذ بالأسباب لأن الرسول ﷺ يقول احرص على ما ينفعك وهذه فى الأسباب.. واستعن بالله.. وهذا هو التوكل.

لقد كانت العجوز فى خبائها تنظر إلى الحياة نظرة مستقبلية كما يقول المتحضرون اليوم..

نظرة من ينظر إلى شجرة التوت .. فيراها .. لا تنتج فقط ثمرا وإنما تنتج حريرا.. لأنها طعام دودة القز!

وهكذا كانت كل يوم تلتقى فيه بالحياة .. يبدأ عمرها من جديد!

وكم للأمهات من معجزات:

ذات يوم ..أرسلت المدْرَسة إلى أم التلميذ تقول لها:

وفِّرى مالك .. ولا داعى لتعليم ولدك لأنه غير صالح للتعليم ولكن الأم صممت على أن تعلمه .. وفعلا. وكان من بعد المخترع العبقرى «أديسون»

أما الفتى فهو ابن بار بأمه:

لم يسخر منها . . مقبلا على حياته كشاب . . وكان . . من الممكن أن يكسر خاطرها مثبطا همتها . . كما قد يحدث اليوم . . ولكنه كان مثلها:

أ ـ آملا فى فرج الله تعالى . .

ب ـ بارا بها . . فى وقت كانت قعيدة . . لا حول لها ولا طول . .

وكان مع ذلك طالبا وفيا لأستاذه الإمام . . فلم يغضب من رده القاسى . . لكنه سرعان ما عاد إلى داره حاملا همه . . غير شاك ولا باك . . إلى أن جاءته البشرى . . بشفاء أمه . .

وإنه ليذكرنا بأبى هريرة رضى الله عنه . . عندما ذهب إلى رسول ﷺ ليدعو لأمه حتى تسلم . . فلما عاد إلى الدار سمع خضخضة الماء . . لقد كانت أمه تتطهر بعد أن أعلنت إسلامها . . وهو نوع من المكافأة العاجلة . . إنها بشرى المؤمن الذى كان بارا . . وفيا . . فكان الله تعالى به حفيا.

وأين من هذا البر ما يحدث اليوم فى دول لا تدين بالإسلام:

لقد حدث طالب علم يدرس فى أوروبا كيف دخل شارعا يوما يسأل عن سكن . . فقابلته فتاه تبكى . . فلما سأل عن سر بكائها:

قيل له: إن والدها رفض أن يؤجر لها حجرة فى منزله إلا بثلاثين دولارا بينما ترجوها هى بعشرين . .

وفرّط الرجل فى جنب الرحمة . . وأظهر تصرفه الأنانى . . ما حبانا به الإسلام من نعمة التوفيق.

أما العجوز التى أبلغته أن الإمام دعا لأمه:

فهى تُمثل المجتمع الذى يسمع الكلمة الطيبة:

أولا: يطرب لها . . ويسعد بها

وثانيا: يبلغها . . لتتسع دائرة السعادة.

ويرحم الله أيام زمان: يوم كان الناس يتواصون بالحق . . ويتعاونون على

البر.. يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه.. يوم أن جمعهم القرآن.. فكانوا على طريقه نعم الإخوان:

بكى محمد بن المنكدر يوما.. ولما اشتد بكاؤه.. سأله أهله عن السبب.. فلم يجبهم.. أو لم يستطع أن يجيب بعد أن خنقته العبرات..

وعلى الفور أرسلوا لصديقه وحبيبه «أبو حازم».. التابعى الجليل.. ليقف إلى جانب صديقه فى محنته.

فلما سأله أبو حازم عن سر بكائه قال له ابن المنكدر:

آية فى سورة الزمر.. تلوتها فلم أملك نفسى.. قوله تعالى: ﴿**ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾

وعندئذ انفجر أبو حازم فى البكاء معه. فقال له أهله: جئناك لتفرج عنه. فزدته.. فذكر لهم الآية الكريمة..

إنها النفوس الكبيرة: التى تحمل النفس على ما تكره.. إذا كان الله تعالى يحبه..

ثم تقلع عما تحب.. إذا كان الله تعالى يكرهه.

إن داعية ما.. قد يلقى عليك محاضرة ممتعة عن فضائل الجهاد.. فتسمع.. بل تستمع.. بل تستمتع..

ثم تشرع قلمك أو لسانك لتكتب ما أفدت منه من صوز البيان وروعة الأسلوب..

ولكن داعية آخر يحملك بحرارة إيمانه.. وحسن سيرته.. ونقاء سريرته على أن تبحث عن السلاح لتنطلق إلى ساحة المعركة حاملا روحك على كفيك!

إن الداعية الأول والداعية الثانى شركاء فى أصل الإيمان..لكنهما يختلفان فى طريقة الدعوة..

فواحد يعتمد على بيانه: وآخر يعتمد على عمله. فكان هذا الفارق الشاسع بين النموذجين:

ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..﴾

لقد أخَّر الإيمان . . فهو قاسم مشترك بين كل الدعاة. لكنه قدم الأمر والنهى وهو ثمرة الإيمان . . لأنه الجانب التنفيذى الذى يجعل من هذا الإيمان حقيقة . . بل حديقة يتفيأ الناس ظلالها . . وينعمون بأطايب ثمارها.

وإن تعجب فعجب أن ينتشر الإسلام اليوم . . اليوم بالذات مع أن كل الدلائل تشير إلى عكس ذلك:

فالحرب قائمة فى ديار المسلمين . . تحصدهم حصدا. . والأجانب يُدِلّون بتفوقهم التقنى. .

ولكنها القدوة التى تهز الفطرة . . فإذا هى أمام الإسلام حيا . . يسعى على قدمين. . ومن ثم يدخل الناس فى دين الله أفواجا.

أما بعد فإذا كانت الأشياء تتميز بضدها. . فإن تواضع الإمام أحمد ليزداد فى وعينا تألقا أمام صورة هذا الغرور على لسان القائل المعجب بنفسه إلى حد الفتون بها:

فلو أنصفوا كنتُ المقدَّم فى الأمـــر
ولم يطلبوا غيرى لدى الحدث النكر
ولم يفزعوا إلا إلىّ إذا ابتغـــــوا
رشادا وعلما يعزبان عن الفكـــــر
فما أنا إلا الشمس فى غير برجـــها
وما أنا إلا البدر فى ليلة البـــــدر!

*****

أما الإمام أحمد رضى الله عنه فإننى أحس به يعيش حياة المؤمن التقى.. على أوفى ما تكون المعاناة والتحمل: فهو من هو فى علمه وفضله.. ومع ذلك استصغر نفسه تواضعا.. طالبا من الفتى أن تدعو أمه له!. فليست هى أولى بالدعاء منه! ثم هو فى نفس الوقت يحب الخير للمسلمين .. ولا يترك فرصة تفوت ولا يدع أملا يخبو .. دون أن يقول كلمة خيّرة .. ولهذا فقد دعا لها .. شريطة ألا يسمع الابن دعاءه!

الإمام القدوة:

ومعنى هذا أن الإمام أحمد كان قدوة فى الفضل قبل أن يكون أستاذا فى العلم..

ولنا هنا وقفة بين الفضيلة .. والحصيلة .. بين الفضيلة التى تجعل من العالم قدوة حسنة .. وبين الحصيلة العلمية التى يواجه الطلاب بها..

وإذا كان العلم فى ذاته مطلبا.. فإن رسوخ الفضائل فى قلب العالم الداعية بعد آخر له رجاله الراغبرن فى التأسى به..

ونأخذ الإمام أحمد مثالا على ذلك: كان طلاب العلم بين يديه يتجاوزون أحيانا خمسة آلاف. خمسمائة منهم فقط يكتبون فيتعلمون .. والباقون ينصتون ناظرين إليه فقط يتعلمون منه حسن الأدب:

كيف يتصرف مع طلابه..كل حركة تسقط منه فى نقطه الضوء.. يتأملونها.. قال بعضهم: اختلفت إلى الإمام أحمد اثنتى عشرة سنة .. وهو يقرأ المسند على أولاده .. فما كتبت عنه حديثا واحدا وإنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه..

إن طلاب العلم اليوم كثير .. أما طلاب الأخلاق فقليل! وتأمل كيف كان الإمام يقرأ المسند على أولاده أولا..فخيركم خيركم لأهله .. ولقد كان خيرا لأهله..

*****

﴿ الذين ينفقون.. ﴾

من معانى الجنة أنها تجُنُّك . . تسترك: فلا تخرج منها . . أوْ لا تريد أنت الخروج منها . .

. وإذا كان المتنعمون فى الدنْيا يتمنَّوْن أن يتغير ما هم فيه من النعيم ولو إلى الأسوء . . سأما وملالا . . فإن المتقين فى الجنة . . لا يسأمون ولا يملون:

فهم من نعيم . . إلى نعيم . . وكل ما يتمنونه يجدونه حاضرا . . متنقلين بين ثمارها وأنهاراها . . فى جنة . . تَجنُّهم . . تكفيهم بنعيمها . . فلايتمنون الخروج منها أبدا . .

ذلك بما قدمت أيديهم

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧].

وإذا كانت خيرية الأمة لا تتحقق فقط بصلاحها . . وإنما بإصلاح غيرها . . فتلك رسالة المتقين. ذلك بأنهم ينفقون: فَيُحقِّقون بالإنفاق خيرية الأمة . .

وإذا كانت حضارة العقل . . سبيلا إلى العدل . . فإن حضارة المتقين هى حضارة الروح . . وثمرتُها الإيثار ثم هم يعلمون: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾

يعنى: يرفضون الخرافات . . ثم يَمْشون . . يسْعى نورهم بين أيديهم فتتضح أمامهم صور الأشياء كما هى . . ومن ثم كانوا هم القادرين على حسم القضايا . . واستنباط العبر . . فكان القلب مشتاقا . . والإخلاص دفاقا . . والروح خفاقا . .

ويعنى ذلك أن المتقين هم الذين يحققون جوهر الإيمان على ما يقول تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

اتَّبِعُوه: وهذه ناحية نظرية. واتقوا . . وهذا هو المنهج العملى على أرض الواقع .

يقول العلماء:

[أليس كل من ألمّ بشيء من الخصائص الآنفة يكون متقيا.. كما أن مالك شيء من المال لم يبلغ نصابا.. لا يسمى غنيا.. ولما استجمع المتقون كلّ شُعَب الإيمان صاروا حداة الركب.. وبلا منازع.

ولاحظْ قوله تعالى ﴿ينفقون﴾ وما يفيده التعبير بالمضارع من تجدد.. يجدد به المتقى ما بَلِىَ من أمور الناس..

إنهم لا يُزكّون فقط.. ولكنهم فوق هذا ينفقون.. يتطوعون.. يلاحقون أوجاع الأمة بالعلاج.. فى سباق معها حتى تزول..

إنهم يمثلون فى دنيا الناس معانى: الخصوبة.. والحركة والنمو.. ولهذا يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]

فلم يشبِّه المنفقين ــ والملاحظة لبعض العلماء ـ لم يُشبّهْهم بالزرّاع.. وإنما بالحبة النامية.. الخصْبة.. الولود!

إن حركتهم من النمو.. والاتساع بحيث تنشر رحمتها على الناس.. كلِّ الناس...

وهذا علىّ رضى الله عنه يقول! لأن أجمع ناسا من أصحابى على صاع من طعام.. أحبُّ إلىّ من أخْرج إلى السوق فأشترى رقبة.. فأعتقهَا..

وهى الفلسفة النابعة من إرشاداته ﷺ. حين كان يوصى قائلا: «إذا طبخت.. فأكثر المرق».

إنه الإحسان الرافض تركيز المَرَق كما يفعل المترفون.. أثَرةً..

ولكنها السَّعة التى تَعُم المحتاجين.. والذين يقاسمونك نعمة الله عليك.. ولئن زايَلَتْك متعتُك الخاصة.. فقد أخلف الله عليك بنعمة التيسير على الآخرين

الذين أَنَلْتَهم رفدَك. . فصاروا لك إخوانا وأعوانا. .

هذه الأخوة . . التى يَذْهَبُ المال . . وتبقى لك ذكرا وشكرا . . تتجدد به حياتك . . كما جَدَّدْتَ بالإيثار حياة المؤمنين.

*****

تمهيد :

لكى تلبس الثوب الجديد . . لابد أن يكون الجسم قبل ذلك نظيفا . .

وإذا كنت قد غَسَلْتَ قلبك بالتوبة . . فلكى تتم النعمة كمالا . . لابد أن تكون على وعى بحقيقة العبادة . . التى تزيِّن بها نفسك . . لتمضى على طريق العودة راشدا . . ماجدا.

وإذا كانت الصفحات الماضية بيانا لواجب المتقى نحو مجتمعه . . فإن ما يلى من صفحات بيان لواجبه نحو ربه سبحانه وتعالى:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[١].

ومعنى الآيات الكريمة: أن الله تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليكونوا عبادا له. يتقربون إليه سبحانه بطاعته . التى هى مهمتهم الأساسية فى حياتهم.

ومن ثم . . فينبغى أن تكون الطاعة همهم الأكبر . .

وفيما يتعلق بالرزق . . فقد تكفل الحق سبحانه به . . وليس شأنه تعالى مع عباده كشأن السادة مع عبيدهم فى الدنيا . . فإن سادة الدنيا يملكون العبيد ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم.

أما الحق سبحانه فهو الخالق الرازق . . فينبغى توجيه الإرادة إلى ما خلقتم له من العبادة . . معتمدين فى قضية الرزق على الرزاق ذى القوة المتين.

*****

---

(١) الذاريات ٥٦ ــ ٥٨ .

بعض الناس يغرقون إلى آذانهم فى متع الدنيا .. تمضى بهم حياتهم إلى الأمراض . نتيجة لحياة تحركها الأغراض.

وبعضهم خاصم الحياة مؤثرين عزلة تلغى وجودهم بين الناس .. هاربين من ساحة ملكوا زمامها لشياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

ووأدوا بذلك قدرات نحن فى حاجة إليها . تعميرا للحياة ونصرا للدعوة.

ولقد أخطأ الفريقان كلاهما:

أما الأولون من المستهترين فقد سارت حياتهم سيرا غير طبيعى. فكانت النتيجة غير طبيعية أيضا..

لأنهم بالتفريط فى جنب الله ينهون حياتهم على نحو لا يرضيهم . ولا يرضى الحق.

وبعد رحلة المعاناة مع الشيطان . وحين تصدمهم الحقيقة المرة سينتقلون من التفريط إلى الإفراط مجاوزين الوسط الذى لم يهيئوا أنفسهم له..

استمع إلى أحد المسرفين على نفسه يقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يُعادلَه سبك

لقد أسرف الشاعر من سمار الليالى فصارت حياته عبثا وضحكا . فماذا كانت النتيجة؟

إنها الانتقال رأسا من التفريط إلى الإفراط.

لقد ضحك كثيرا . وها هوذا اليوم لا يكتفى بالبكاء على ما أسلف فى أيامه الخالية . . ولكنه يريد الحياة سرادق عزاء كبير . . واضعا نفسه مع المسرفين من أمثاله تحت مطارق الحياة التى تدكهم دكا لا يبقى لهم على أثر.

ولو أنه مارس الحياة على شرط الإسلام المقبل بالمسلم عليها جذلان راضيا فى الوقت الذى يمارس فيه دوره الحقيقى فى ترقيتها بالمثل العليا . . لو أنه فعل. . لكان أجدى.

لكنه ركب الموجة . فسارت به إلى ما يشبه الانتحار . . حاكيا بموقفه قصة أمم أسرفت على نفسها فكان الاندحار . . ثم الانتحار!

*****

وكما يرفض الإسلام اللهو الصارف عن الفضيلة .. فإنه يرفض الانقطاع الكامل للعبادة .. حفاظا على ملكات الإنسان حتى لا تصدأ . ثم لا تصلح للعمل. وفرارا من الملل المؤدى إلى ترك العبادة جملة

جاء فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو:

سأله رسول الله ﷺ : «**كم يوما تصوم؟**» قال: سبعة أيام فى الأسبوع. قال: «**ذلك كثير**». قال: فست. قال: «**كثير**» قال: فخمس. قال: «**كثير .. صم يوما وأفطر يوما**»

قال يا رسول الله: إنى أطيق أكثر من ذلك . وإنى أريد أفضل ذلك

قال: «**لا أفضل من ذلك: أفضل الصيام صيام أخى داود: كان يصوم يوما ويفطر يوما. يا عبد الله بن عمرو: إن لربك عليك حقا . وإن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا. فأعط كل ذى حق حقه**»

إن عبد الله رضى الله عنه يشعر بقوة الشباب تسرى فى بدنه .. ومن ثم فله فضل طاقة يريد الإفادة منها بالصوم الموصول .. ويلفت الرسول ﷺ وسلم نظره إلى أن الإسلام وإن رحب بهذه الرغبة فى عمل الخير .. إلا أن تحول الحياة إلى محراب صلاة وصيام يضيع حقوقا أخرى يجب أن تصان . ولا تكمل العبادة فى غيابها.

ولقد غاب عن عبد الله رضى الله عنه أن للصوم نتائج فى دنيا الناس وعليه أن يحققها.

فالصوم يوصل إلى التقوى.. والتقوى مجموعة من الفضائل العملية الإيجابية يسعد بها المجتمع.

فإذا صام يوما .. فقد تزود بطاقة إيمانية.. فإذا أفطر فى اليوم التالى حول هذه الطاقة إلى فضيلة عملية ترقى بها الحياة .. فهو اذن فى عبادة مستمرة ..

كان سيحرم منها لو أنه ظل ممسكا عن الطعام أبدا ثم إذا تحول المسلمون جميعا صائمين قائمين . .

فمن ذا الذى يضمن لهم الحماية لوهاجمهم عدو؟ وماذا يفعل الجسم الهزيل والعظم الواهن؟!

لابد من قوة ترهب عدو الله . . ولا بقاء للحق إلا بها . . وإذا كانت قوى الباطل تحرسه بطائرات قاذفات باللهب . . فحرام أن يظل الحق أعزل . بلا قوة تحميه .

إن الإلحاد ـ كما قال علماؤنا ـ تحرسه أقمار صناعية (يرصدها فى الفضاء كى تأتى به بالأخبار . أو كى يشرف بها على الحياة والأحياء)

(وإذا كان أداء الصلاة يحتاج إلى ذراع من الأرض لنصلى فيه . فإن حماية هذا الذراع من الأرض تحتاج إلى علم من الأرض إلى السماء)

(إن الجندى فى الجبهة لابد أن يكون وراءه أكثر من عشرة أشخاص يخدمونه حتى يبقى فى الجبهة) .

عشرة أشخاص متخصصون فى نواحى الحياة المختلفة . يعملون بقدرة وكفاءة . ولكن يبقى الجندى هناك لابد وراءه من زراعة متطورة . ومن عقول مستنيرة . ومن طب ودواء . ومن أكل وشرب .

ولا تبلغ العبادة كملها إلا بهذا العمل الدؤوب .

*****

(١) المرحوم الشيخ محمد الغزالى .

من آثار العبادة

للعبادات أثرها الفعال فى حياة الفرد وحياة الجماعة.. ولقد لخصها الإمام على رضى الله عنه فى قوله:

[فرض الله الإيمان تطهيرا من الشرك. والصلاة .. تنزيها من الكبر. والزكاة سببا للرزق. والصيام.. ابتلاء لإخلاص الخلق. والحج.. تقوية للبدن والجهاد.. عزا للإسلام.

والأمر بالمعروف .. مصلحة للعوام. والنهى عن المنكر .. ردعا للسفهاء. وصلة الرحم . منماة للعدد. والقصاص حقنا للدماء.. وإقامة الحدود .. إعظاما للمحارم.

وترك شرب الخمر .. تحصينا للعقل. وترك السرقة إيجابا للعفة.. وترك الزنا .. تصحيحا للنسب.

والشهادات .. استظهارا على المجاحدات. وترك الكذب.. تشريفا للصدق. والسلام .. أمانا من المخاوف. والأمانة .. نظاما للأمة. والطاعة .. تعظيما للإمامة].

فانظر إلى آثار رحمة الله تعالى فيما سن من شريعة غراء .. لها كل هذه البركات فى حياة الأمة.

ولكن هذه الآثار العظيمة لا تتحقق إلا بالعلم.. سبيلا إلى كشف أسرارها..

وهذا ما يقرره العارفون القائلون:

[إن العبادة لا تكون إلا عن معرفة. ومعرفة الله: ذروة المعارف كلها. ونهاية رحلة طويلة من المعارف تبدأ منذ الميلاد. أول ما يعرف الطفل عند ميلاده هو: ثدى أمه وتلك أول لذة. ثم يتعرف على أمه وأبيه وعائلته ومجتمعه وبيئته . ثم يبدأ فى استغلال هذه البيئة لمنفعته. فإذا هى ثدى آخر كبير يدر عليه الثراء والمغانم والملذات، فهو يخرج من الأرض الذهب والماس. ومن البحر اللآلئ ومن الزرع

الفواكة والثمار. وتلك هى اللذة الثانية فى رحلة المعرفة.

ثم ينتقل من معرفته لبيئته الأرضية. ليخرجة إلى السموات. ويضع رجله على القمر.

ويطلق سفائنه إلى المريخ.. فى ملاحة نحو المجهول. ليستمتع بلذة أخرى أكبر هى لذة استطلاع الكون ثم يرجع ذلك الملاح ليسأل نفسه:

ومن أنا الذى عرفت هذا كله؟

ليبدأ رحلة جديدة إلى نفسه . بهدف معرفة نفسه . والتحكم فى طاقاتها وإدارتها لصالحه، وصالح الآخرين. وتلك لذة أخرى.

ثم ذروة المعارف بعد معرفة النفس هى معرفة الرب الذى خلق تلك النفس.

وبهذه المعرفة الأخيرة يبلغ الإنسان ذروة السعادات. لأنه يلتقى بالكامل المتعالى الأجمل من كل جميل. تلك هى رحلة العابد على طريق العبادة. وكلها ورود ومسرات.

وإذا كانت في الحياة مشقة فلأن قاطف الورود لابد أن تدمى يديه الأشواك.

والطامع فى ذرى اللا نهاية لابد أن يكدح إليها[١].

*****

(١) حوار مع صديقى الملحد ١٢٥.

من مضاعفات

المبالغة فى العبادة

ولا يقتصر الأمر على الناحية العسكرية. وما تتطلبه من طاقات ترهب بها عدو الله. بل أن الرهبانية تترك انعكاساتها على الأسرة وبخاصة علاقة الزوج بزوجته:

من حياة أبى الدرداء

(تذاكر أبو الدرداء وعمر فقال أبو الدرداء: يا أمير المؤمنين: أتذكر حديثا حدثنا إياه رسول الله ﷺ؟ قال عمر: أى حديث؟

قال: قال ﷺ: «**ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب**» قال عمر: نعم.

قال: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟ وبكى أبو الدرداء فبكى عمر.

وقد ظل أبو الدرداء رضى الله عنه وفيا لهذا الحديث وفاء أنساه حقوق زوجته.. ثم صحا من غفوته على سنة الرسول ﷺ تقف به على سواء الصراط.. ومن خلال نصيحة صاحبه سلمان الفارسى رضى الله عنه:

(زار سلمان الفارسى صاحبه أبا الدرداء - وقد كان ﷺ آخى بينهما -

فوجد أم الدرداء - زوجته - مبتذلة (لابسة ثياب المهنة لا ثياب الزينة والتجمل كما تفعل الزوجة)

فقال لها سلمان: ما شأنك؟

قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا! فجاء أبو الدرداء « فرحب بسلمان» وقرب إليه طعاما» فقال: كل.. فإنى صائم.

فقال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل.

وفى رواية البزار: أقسمت عليك لتفطرن، قال: فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم.. فقال سلمان: نم.. فنام. ثم ذهب ليقوم، فقال سلمان له: نم!

فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن.. فصليا.

فقال له سلمان: « **إن لربك عليك حقا. ولنفسك عليك حقا. ولأهلك عليك حقا. فأعط كل ذى حق حقه**».

فأتى أبو الدرداء النبى فذكر ذلك له. فقال النبىﷺ « صدق سلمان[1] .

وفى رواية ابن سعد أنه ﷺ قال: «**لقد أشبع سلمان علما.**»

ماذا فى الموقف من دروس:

أحيانا ـ وطبق خطة الشيطان فى المكر بالعابدين ـ يساعد المسلم على تسنم القمة العالية فى العبادة التى ربما لا يصبر عليها.. فيتركها جملة ! ومن هنا كان لابد فى العبادة الى جانب الإخلاص أن تكون صوابا:

وإذا امتزج الإخلاص بالصواب تحقق النجاح. وإذا تخلف الصواب.. ضاع الاخلاص والصواب !!

وهذا ما أزعج سلمان رضى الله عنه عندما رأى أخاه أبا الدرداء من عبادته على خطر عظيم يوشك أن يهدد حياته الأسرية.

وإذا كان قد حقق بالعبادة تعظيمه للخالق.. فقد أضاع نصفها الآخر حين لم يشفق على الخلق باضاعة حقوقهم.

ولكن لماذا استحق سلمان شرف هذه الشهادة النبوية الكريمة وهى:

«صدق سلمان» «**لقد أشبع سلمان علما**»

أولا: صديق يزور أخاه فى الله.. لا كالضيف أو سحابة الصيف.. ولكنه يهتم بأمره ويقف إلى جانبه لتصحيح مسير حياته. ،لا يعتبره أبو الدرداء قد تدخل فى حياته الشخصية، فقد كان الإيمان ممتدا فى القلب كله.. بحيث لم يكن فيه موضع لهاجس من الشيطان، ومن ثم كانت الثقة المتبادلة فوق كل اتهام.

ثم إن حديث سلمان لم يكن فى غياب الزوج، بل كان على مرأى منه ومسمع، على أن ضجر الزوجة لم يكن شكوى بقدر ما كان إيحاء بحق مهضوم

---

(١) رواه البخارى والترمذى .

يقف بها على مشارف الخطر.

ثانيا: لقد انتقل سلمان من الحكم الشرعى إلى الحكمة التى تستوعب الأمور، ثم أعان أخاه على أمر الله تعالى.

ثالثا: لم يكتف سلمان بمجرد الموعظة.. لكنه سهر معه.. فى متابعة طول الليل حتى يتم الدرس فصولا.. فلما أمره ائتمر.

ولما نهاه انتهى.. فلما أخذا حظهما من النوم.. نهضا لعبادة يباشرانها حينئذ فى شوق

إنها أخوة الدين الجامعة.. وكلمة الحق تقال للمضيف وفى عقر داره. فيتقبلها على العين والرأس.. عودة إلى الحق بعد ما تبين.

وإذا كنا نشاهد اليوم أسراً تنحل عراها من وراء ما يسمى بصديق الأسرة أو العائلة.. وما يترتب عليه من وبال..

فإن الزوجة هنا سعيدة بأخ فى الله يحق الله به الحق ويبطل الباطل.

وإن زوجها لأسعد بناصح أمين يصل ما أمر به أن يوصل.

ويعود الضيف ـ سلمان رضى الله عنه ـ راضيا بما حقق من أمل..

وما أنجز من عمل. مودعا بمثل ما استقبل به من دعاء أن يجمع الله الأصدقاء دائما على طاعة الله تعالى.

{مع حنظلة رضى الله عنه}

(عن حنظلة بن الربيع الأسدى رضى الله عنه ـ وكان من كتاب رسول الله ﷺ ـ قال: لقينى أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة!

قال: سبحان الله! ما تقول؟ قلت:

نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة. كأنا رأى عين [1] فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ.. عافسنا الأزواج [2] والأولاد والضيعات [3]

(١) يقال: جعلت الشىء رأى عينك، أى: بمرأى منك.
(٢) المعافسة: الملاعبة والمخالطة.
(٣) المعاش أو الحرفة والصنعة

ونسينا كثيرا.

قال أبو بكر رضى الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله:

فقال رسول الله ﷺ: «ما ذاك؟ »قلت: يا رسول الله: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين.

فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا.

فقال رسول الله ﷺ: « **والذى نفس بيده، لو تكونون على ما تكونون عندى وفى الذكر» لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم. ولكن يا حنظلة: ساعة .. وساعة** » ثلاث مرات[1] .

يطالعنا الموقف بجملة من الحقائق

١ ـ الداعية الأول ﷺ يجلى الحقائق تجلية ترفعها إلى درجة المحسات.. فكأنما يراها طلابها حية على الطبيعة مع أنها هناك خلف أستار الغيب.

انه ﷺ منفعل بها.. مطبق لها فى ذات نفسه أولا. فلما أراد أخذ الصحابة بها.. لم يكن بحاجة إلى تكلف واعمال نظر.. وإنما هى المرآة الصقيلة تعكس الأشياء بكل ملامحها وقسماتها.

٢ ـ الطلاب المقبلون عليه ﷺ يتحسسون أنفسهم بين يديه فاذا بها فى حضرته ومعه فى روضات الجنات.. فى الملأ الأعلى.. وتمت قضية الدعوة فصولا: بالمعلم الفذ.. والطلاب المقبلين.

٣ ـ وعندما عاد أحدهم ـ وهو حنظلة رضى الله عنه ـ إلى أهله ضاحك الأولاد ـ ولاعب الزوجة، وشغل بمعاشه. فانحسرت الموجة..

ونزلت به الدنيا من أفقه العالى.. ففزع من هذه الظاهرة التى اشتكى منها لأبى بكر والذى وجد نفسه أيضا على شاكلته. وعلى شفا جرف.

---

(١) أخره مسلم والترمذى بروايات مختلفة، وفى رواية «عن حنظلة الأسدى».

٤ - حملتهما أقدامهما إلى رسول الله ﷺ ليفصل فى أمر يوشك أن يتهدد إيمانهما بالزوال.. ومع أن حنظلة كان من كتاب الوحى ..

ومع ماضي أبى بكر النبيل الجليل.. ألا أن الحساسية المفرطة أنست الرجلين هذا الماضى العظيم.. فى صحبة شعور بالخطر يهدد إيمانهما بالزوال.

٥ - ويطمئنهما ﷺ اطمئنانا مؤسسا على قاعدة الإسلام الكبرى فى تقدير طبيعة الإنسان:

« إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »(١).

وما كان هذا من الإسلام تقليلا من شأن العبادة بقدر ما كان حفاظا على المسلم نفسه ليظل مستمرا فى عبادته.. وقليل دائم خير من كثير منقطع.

وما أكثر الذين تحملوا الأثقال جملة.. فتركوها جملة

٦ - يوضح ﷺ الأفق الوضيء الذى يتبوؤه الصحابة ساعة مثولهم بين يديه.. والذى يرفعهم عن الأرض ليعايشوا الملائكة فى الملأ الأعلى.. بل لتنزل عليهم الملائكة، لكن وظيفة الانسان ليست هناك.. وإنما على هذه الأرض بحكم بشريته التى تمارس وجودها.. يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق. وإن عمر المسلم موزع بين ساعة. وساعة:

ساعة يعظم فيها ربه.. وأخرى يشفق فيها على خلقه. كما أشرنا آنفا. والتقصير فى الثانية كالتقصير فى الأولى: كلاهما بعد عن الخط المستقيم.

ولأن الصحابة يريدون الحياة محراب صلاة لا يبغون عنه حولا.. ولأن حنظلة يقف فى طليعتهم.. ولا يتصور أن لحظة واحدة تمر دون أن يكون فى عبادة ربه: لأن الأمر كذلك. فإنه ﷺ يلفت نظره بقوة ليفهم الدرس جيدا عن طريق مخاطبته.. ثم تكرار الموعظة مرات ثلاث.. لتصحو النفس، ولتستقيم على جادة الطريق.

---

(١) المنبت: الذى حمل دابته فوق ما تستطيع فعطبت فى الطريق ولم يبلغ الهدف.

وإذا خاف الصحابة رضوان الله عليهم من الفتنة من جراء ساعات يعيشون فيها حياتهم مع أهليهم وذويهم.. فان هناك من طلقوا الدنيا.. وهجروا الزوجات.. وكان للاسلام معهم حساب كى به مع أبى الدرداء.

{أخرج عبد الرازق فى مصنفه عن قتادة والشعبى قالا: جاءت عمر امرأة فقالت: زوجى يقوم الليل ويصوم النهار.

فقال عمر: لقد أحسنت الثناء عليه. فقال كعب بن سوار: لقد شكت.

فقال عمر: كيف؟ قال: تزعم أنه ليس لها من زوجها نصيب.

قال: فإذا فهمت ذلك فاقض بينهما.

فقال: يا أمير المؤمنين: أحل الله له من النساء أربعا:

فلها من كل أربعة أيام يوم. ومن كل أربعة ليال ليلة.

فهذه زوجة تطلب حقها المضيع لدى زوج استغرق فى العبادة على نحو لم يترك فراغا لها.

ولم تشأ أن تذهب إلى جارة أو جار حفاظا على ما فى البيوت من أسرار قد تستغل مستقبلا. وذهبت إلى عمر رضى الله عنه: فهو القادر على حسم القضية وهو مع ذلك مستودع سرها.

وببساطة المؤمن الذى يعيش حياته على الفطرة. وانسجاما مع منهج عمر نفسه.. فقد سعد بالمرأة وحسب كلامها ثناء على زوجها.

ومن حسن حظها وجود «كعب» فى المجلس.. والذى فهم غرض المرأة.. وكيّف موقفها بفراسته.

ولم يجد الخليفة غضاضة أن سبقه واحد من رعيته إلى الفهم !

وكان حكيما حين أحال القضية على من فهم خباياها.. واستبطن ما وراء السطور فيها. فجاء حكمه عادلا، واضعا الزوج فى مكانه الصحيح.. عائدا بحق المرأة الضائع حفاظا على الأسرة أن تزول.

ومن الطريف فى هذا الباب ما روى عن الشعبى، قال: كنت جالسا عند «شريح» القاضى اذا دخلت عليه امرأة تشكو زوجها وهو غائب، وتبكى بكاء شديدا.

فقال: أصلحك الله. ما أراها إلا مظلومة. قال: وما أعلمك؟ قال: لبكائها!
قال: لا تفعل، فإن إخرة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون.. وهم له ظالمون.

من صور المبالغة

أحيانا يحس الفتى بعاطفة دينية مشبوبة. لا تسعها الدنيا من حوله، وقد يحاول التعبير عنها فيشتط به المزار متجاوزا حدود الشريعة.. والحكمة قاضية بالتصدى لهذا الشلال الهادر المندفع قبل أن يطفئ المصباح داخل النفس.. لأنه لا يتحمل هذا الضغط العالى.. وقبل أن تذهب لحظة الاندفاع بكل رصيد الخير فى كيان الفتى المتحمس.

وذلك ما فعله الامام مالك رضى الله عنه.. عندما استقبل واحدا من هؤلاء المتحمسين:

قال الفتى للامام: من أين أحرم؟ يعنى للحج.

قال: من«ذى الحليفة» مكان إحرام أهل المدينة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ.

فقال: إنى أريد أن أحرم من المسجد، من عند القبر قبر النبىﷺ

قال: لا تفعل. فإنى أخشى عليك الفتنة.

قال: وأى فتنة فى هذا؟ وإنما هى أميال أزيدها!

قال: وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ:

إنى سمعت الله يقول:

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

ويبدو الفتى أولا محكوما بقيم الاسلام الداعية إلى احترام الخبرة بسؤال أهل

الذكر قبل اتخاذ القرار.

ثم تراه ثانيا على غاية ما يكون الأدب فى مناداته الإمام بكنيته: يا أبا عبد الله. ويجيبه الامام بضرورة الالتزام بفعل رسول الله ﷺ فلا يزيد عليه ولا يكفيه الجواب المحدد لإطفاء شعلة الحماس.. فيلوح للفتى بفتنة توشك أن تحتويه لو أنه فعل كما يريد ويكشف الفتى عن فهمه البسيط عندما يحسب الأمر هينا وهو عند الله عظيم. ذلك بأن المبتدع غير العاصى الذى قد يواقع الذنب ثم يعود من قريب، لكن المبتدع يرتكب معصية مع سبق الإصرار والترصد، ومن ثم فرحلته مع الهوى لا يرجى لها عودة،

وفى تحديد مسافة الخلف بين المذنب والمبتدع يقول ابن القيم:

(إن المذنب إنما ضرره على نفسه. وأما المبتدع فضرره على الناس. وفتنة المبتدع فى أصل الدين، وفتنة المذنب فى الشهوة.

والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول الله ﷺ، والعاصى ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصى بطىء السير).

ثم.. من الناحية العملية: قد يحقق هذا الفتى زيادة مسافة وربما يطيقها هو. ولا يطيقها غيره، وربما لا يطيقها هو غدا.

وبالإضافة إلى هذا العنت فإنه يدخل المزاج الشخصى طرفا فى القضية، وسوف يقلده آخرون، فيضيع معنى الاتباع، والالتزام بسنته ﷺ، ويرحم الله عبد الله بن عمر:

« ما كان أحد يتبع آثار النبى ﷺ فى منازله كما كان يتبعه ابن عمر»

يقول ابن قدامه منددا بمثل هؤلاء الساهين:

(إن طائفة من الموسوسين قد تحققت منهم طاعة الشيطان حتى اتصفوا

بوسوسته، ونسبوا إلى قبول قوله وطاعته ،ورغبوا عن اتباع رسول الله ﷺ وطريقه.

حتى أن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ أو صلى كصلاته أن وضوءه باطل. وصلاته غير صحيحه.

ويرى أنه اذا فعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ فى مؤاكلة الصبيان وأكل طعام عامة المسلمين أنه قد صار نجسا يجب عليه تسبيح بده فيه، كما لو ولغ فيها كلب أو بال عليهما هر)

إن زيادة الأميال تعنى زيادة مسافة البعد عن رسول الله ﷺ والاقتراب من الشيطان من حيث لا يحتسب الانسان، ثم الانفصال عن القاعدة ليتخبط المبتدع بعد ذلك فى الظلام.

ولا نجاة إلا بالأعتصام بحبل الله وسنة رسوله. على ما يقول عمر بن عبد العزيز: (سن لنا رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده السائرون على طريقه سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله. واستكمال لطاعة الله. وقوة على دين الله. ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها. ولا النظر فيما خالفها. من اقتدى بها فهو مهتد. ومن انتصر بها فهو منصور. ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى. وأصلاه جهنم وساءت مصيرا).

ويتصل بمعنى الفتنة سؤال: لماذا الأصرار على الزيادة فيما لا يكلف ما لا أوتضحية؟

لماذا يشتد التنافس حول السنن القولية ولا يكون نفس الحماس إذا تعلق الأمر بسنن عمليه تفرض عليك جهدا؟

لقد كان ﷺ جوادا؟ فهل نحن كذلك؟

وكان يخصف نعله. ويرقع ثوبه. وكان يكون فى مهنة أهله فهل تأسينا به هنا؟

جدير بنا أن نتدافع صوب مراكز التدريب لنتعلم كيف نصلح ما أفسد الاستعمال من مرافق بيوتنا وبيوت جيراننا على الأقل لنضرب على يد المحترفين الجشعين؟

لابد من يقظة تعود بنا إلى مثل ما كان عليه رسولنا العظيم وصحابته الكرام.. تعبدا لله تعالى.. وعمارة للدنيا.

لقد انكسرت «ما سورة المياة» وحبست مئات التلاميذ فلم يستطيعوا الخروج إلى مدارسهم وفى المنطقة خمسون من طلاب الهندسة لم يكشف واحد منهم عن ساق ولم يشمر عن ذراع ليصلح ما أفسد الأهمال. ويطلق سراح الطلاب المحبوسين خلف الجدران.. ولكنهم كانوا مشغولين بفروع الدين يقتلونها بحثا.. ثم تخلوا عن مهمتهم الأساسية فى اسعاد مجتمعهم.

ثم هم مشغولون أيضا بفروض العين التى لا تغنى عن فروض الكفاية اللازمة.

هذه الفروض التى تعنى الاهتمام بأمر المسلمين والذى اعتبر العلماء تضييعها خطأ جسيما. واعتبروا التفريط فى الواجب العام «عصيانا» لله واعتداء على الدين.. ذلك بأن فروض الكفاية تأخذ من الوقت أكثر مما تأخذ فروض العين. ولعلها تستغرق أعمار الناس.

ليكن. فذلك هو الطريق لارضاء الله. وحماية الأمة. والحفاظ على الدين. وانشاء دنيا تصونه وتنميه).

اتساع مجالات النشاط

إذا صح أن العبادة هى الجانب النظرى فى الإسلام. فإن الجانب العملى يتمثل فى حركة المسلم الايجابية اليومية على مختلف المستويات. ألا وان قضاء حوائج المسلمين مهما قلت هذه الحوائج باب من أبواب الخير. حبذا لو وفر المبالغون فى العبادة من أعمارهم وقتا يرصدونه لهذا النوع من العبادة التى قل طلابها.. مع ما لها فى ميزان الإسلام من شأن خطير: وأقصد مجال قضاء حوائج المسلمين.

يقول المرحوم الدكتور محمد سعاد جلال فى كلمة له جامعة:

روى البخارى بسنده عن معاوية بن قرة قال: كنت مع معقل المزنى فأماط أذى عن الطريق فرأيت شيئا فبادرته فقال ما حملك على ما صنعت ابن أخى؟

قال: رأيناك تصنع شيئا فصنعته قال: أحسنت يا ابن أخى: سمعت النبى - ﷺ - يقول: «من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة. ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة».

نعرض هنا لثلاث مسائل:

- أن الشرع ينظر للخدمات التى تتعلق بمصالح العباد وكف الأذى عنهم نظرة مفعمة بالجد والاهتمام لا تقل عن نظرته للعبادة المحضة كالصلاة، والزكاة والذكر، وما شاكلها - فنظر الشارع متوجه إلى أن خدمة الناس ودفع الأذى عنهم ضرب من أرفع أنواع العبادة: لأنه بحسب رأينا اسقاط لحظوظ النفس بحرمانها من راحتها. وتعبها من أجل راحة الغير، ابتغاء مرضاة الله، وذلك لا يتم إلا لنفس روضت بالمجاهدات الكثيرة من التقوى وطول المحاسبة، حتى صفت من الحقد والحسد، والشح والكبرياء وخلصت من الرعونات البشرية وازدادت معرفتها بجلال الله فآثرت بذلك رضوانه.

وذلك بعكس حال الذين قصروا هممهم على العبادات الشخصية وكفوا أنفسهم عن خدمة الخلق فإن امتناعهم عن خدمة الخلق دليل على بقائهم عند حظوظ أنفسهم وإيثارهم للعاجلة على الباقية وقصورهم فى محبة الله بالأعراض عن محبة عبيده من أجلها.

مع أن العبادات الشخصية كاقام الصلاة وفعل الحج مما تدخله العادة وفيه لذة فى نفس فاعليه، فلا يتمحض عبادة لله دائما.

أما خدمة الخلق فيما ينفعهم نفعا عاما، لا يتوجه لشخص بعينه ينتظر منه الفاعل جزاء:

فهذه هى العبادة الخالصة لله رب العالمين، وربما كانت مع صدق النية مع الله، أكثر ثوابا من العبادات الشخصية المقصورة على أصحابها.

قال ﷺ -: ما عظمت نعمة الله - عز وجل على عبد إلا اشتدت إليه مؤنة الناس ومن لم يحمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال -

يقول الحديث: إن زيادة نعم الله على إنسان من المال أو الأولاد أو الوظيفة أو

الصحة أو الموهبة العقلية ـ كل أولئك مقابل بخدمة الناس وقضاء حوائجهم فإنه كلما ترادفت هذه النعم تطلعت إلى زكاتها من العطاء والخدمة أنظار الناس وعلى أصحاب هذه النعم ألا يكونوا لؤماء بخلاء أشحة على الخير ينظرون لما آتاهم الله من الخير أو السلطان نظر الحقود اللئيم الذى يشمت فى احتياج الناس إليه ويتشفى فى آلامهم وينصب من نفسه واعظا لئيما فى وصم المحتاجين بالسفه والتقصير مثيرا بذلك لذكائه وحده ـ كما قال قارون ـ إنما أوتيته على علم عندى ـ متجاهلا أن كل نعمة ينالها العبد إنما هى بتوفيق الله. فإن من فعل ذلك ورد المحتاجين لحقهم عنده من العطاء والخدمة تعرض لذهاب نعمته ونزوله لصفوف المحتاجين ليذوق مثل حاجتهم].

*****

قضاء الحـوائج..

فى ميزان الإسلام

عن أبى قلابه أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيرا قالوا: ما رأينا مثل فلان قط:

ما كان فى مسير إلا كان فى قراءة. ولا نزلنا منزلا إلا كان فى صلاة. قال: «**فمن كان يكفيه ضيعته**» حتى ذكر: «**ومن كان يعلِف جمله أو دابته؟**» **قالوا**: نحن. قال: «**فكلكم خير منه**»[1].

فى هذا الحديث الشريف مدى تقدير الصحابة لأخيهم الذى بلغ فى العبادة شأوا بعيدا. فحقق بالوصول إلى القمة حلما طالما راود خيالهم. ثم توجوا هذا التقدير بشهادة يعتز بها كل مسلم يتفرد على قمة العبادة. لقد كانت حياته ذكرا موصولا. لم يدع فى يومه لحظة لعمل من أعمال الدنيا حتى خدمة نفسه.

ويتدخل ﷺ فى الوقت المناسب ليصحح مفهوم العبادة فى الإسلام. فماذا فعل؟:

إن تقديرهم للرجل سليم.. فله ما يسوغه.. لكن حكمهم جاء على شىء من التجوز والمبالغة.. لأنه إذا كان بالتعبد قد نجح فى الاختبار النظرى فقد بقيت نتيجة الاختبار العملى موقوفة حتى يجيبوا عن هذا السؤال: فمن كان يكفيه ضيعته - أى يتكفل بمعاشه -:

فلما قالوا: نحن.. تغير المفهوم.. وتغير الجزاء.. أما تغير المفهوم: فلأن الرجل لم يحقق معنى العبادة كاملا باهماله قضاء مصالحه.. وأما الجزاء.. فقد أنزل الرسول ذلك العابد من قمته التى اقتعدها ليقيم عليها من قضوا حوائجه!!

وإن كانوا أقل منه ذكرا!. مفضلا خدمة الناس على العبادة المحضة التى لم تحقق ثمارها جاعلا جزاءها أعظم أنواع الجزاء:

---

(١) رواه أبو داود فى مراسيله.

• إن الإسلام لحريص على تكوين المجتمع الواحد المتراحم. ومن ثم فهو يحرص على قضاء مصالح المسلمين لتتم العبادة مفهوما..

معنى خدمة الناس:

أن خدمة الناس تعنى:

١ ـ أن يقلده الآخرون. فتتسع دائرة التعاون.

٢ ـ تكامل الأفراد حين يقوم كل فرد بما يحسنه.

٣ ـ غرس الحب فى القلوب.. وهو عامل إيجابى.

٤ ـ انتزاع الحسد منها... وهو عامل سلبى هدام.

وإذا كانت العبادة المحضة قد تجر إليك منفعة. وتضفى عليك مظهرا محببا إلى نفسك. فإن قضاء المصلحة أن تمحض جهدك ليكون فى خدمة الغير وأنت حينئذ تخوض معركة مع نفسك الأمارة بالسوء. الحريصة على ما يحقق مصلحتك أنت.

وإذن فانتصارك عليها بالسعى فى قضاء مصالح غيرك عبادة.. بل هو قمة العبادة.. وجزاؤه أكبر جزاء.

إن هذا العابد الذى انتبذ مكانا قصيا عرضة لآفات فى طليعتها التبعية لغيره ممن يخدمه.. بالاضافة إلى حاجة الأمة إلى طاقته المعطلة لتنطلق جاعلة من الأمة قوة ترهب أعداءها.

ويذكرنا هذا الهارب من الحياة بجماعة من العابدين ركبوا باخرة وكانوا يحملون معهم البخارى تبركا به. ووقاية من الغرق فقال لهم عالم فقيه:

إن السفينة تدور بالبخار لا بالبخارى!

التاريخ يعيد نفسه:

رأيت الفتى الطيب فى صحبة القرآن الكريم.. فى المسجد فى نفس اللحظة كانت أخته تركب حمارها ذاهبة إلى الحقل البعيد فى مهمة لا يصلح لها إلا

الرجال. . وأقمت الفتى من مجلسه على مضض. . وقلت له: لقد دخلت فى حال غيرك!

إن مكانك الآن عبر الحقول. . بدل أختك التى يجب أن يصونها بيتها. . وتكون أنت مكانها. . وهذا هو اعتكافك الذى تصون به عرضك. وتحفظ مالك. وتثبت على الطبيعة وجودك وإذا لم تتح له المفاجأة الدفاع عن نفسه. . فقد نفذ الأمر ثم لما عاد من الحقل جعل يجادلنى فى أمره مؤكدا أن لحظة العبادة لا تعوض!

وطالبنى بالدليل. . قلت له: تصور رجلا يعتزل الناس جميعا فى مكان. . وهذا المكان هو المسجد. . ثم هو يقيم فيه راكعا ساجدا قانتا لله حنيفا. . وعلى مدى عشر سنين؟

تصور هذا. . وتصور مقدار الثواب العظيم على هذا العمل الجليل. . ثم اذكر فى نفس الوقت قوله ﷺ: «**من مشى فى حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين**»[1].

وفى رواية «**أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين**».

وسوف تدرك على الفور أن خطوات تمشيها فى صحبة أخيك المحتاج إلى عونك - مجرد المشى ولو لم تقض حاجته. . خير من اعتكاف عُشر قرن من الزمان!

أهمية بذل الطاقة:

ولو أن كل إنسان اكتفى بتدبير شئون نفسه. . فسعى على قدر حاجته هو. . لتعطلت مصالح كثيرة. . لأن المفروض أن يعمل الإنسان على قدر قوته. . ليكون هناك فضل يسد نقص العاجز عن العمل. . أو الفقير المحروم من المال. . والأخرق الذى لا يجيد حرفة.

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط.

والمفروض أيضا أن يتحول المجتمع إلى خلايا حية عاملة كما أشار إلى ذلك ﷺ : «**على كل مسلم صدقة**» قالوا يا رسول الله: فإن لم يجد.

قال: «**يعتمل بيديه ويعطى غيره**». قالوا: فإن لم يستطع؟

قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**» قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف**» قالوا: فإن لم يستطع؟

قال: « **يمسك عن الشر فإنه له صدقة!** »

ومعنى ذلك تحول المجتمع كله إلى خلية نحل:

كل له عمل ينجزه ليصل به إلى غرض يسعى ليدركه.. لا مكان لعاطل أو كسول..

فيجب أن يكون المسلم عاملا.. ليكون له فضل مال يتصدق به فإن لم يكن فليبحث عن عمل..

ولاحظ قوله ﷺ : «يعتمل» وما تشير إليه من معاناة ومجاهدة. ثم بيديه.. لا بيد واحدة.. ليكفى نفسه وغيره.. ولا يدخر طاقة تسد حاجة غيره..

فإن لم يجد.. أغاث ذا الحاجة.. وخاصة الملهوف الذى ضاقت به السبل.. بخلاف غيره ممن له بقية من حيلة ينقذ بها نفسه..

فإذا عجز عن المساعدة باليد.. فلا أقل من مساعدته بالكلمة الطيبة. وإلا.. فليمسك عن الشر.. وتنتهى مهمته..

ويمكننا أن نقول فى ضوء الحديث الشريف لمن لا يقدر حتى على الكلام.. من مرض أو آفة: فليمسك عن السخط على قضاء الله تعالى.. وتلك وظيفته أو صدقته.

أهمية الانجاز:

وإذ يحقق الاهتمام هذا الثواب.. فإن النصيب الأوفى لمن أنجز المهمة فعلا: وذلك قوله ﷺ :

«.. **فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[1] وإذا كان تبسمك فى وجه أخيك صدقة.. وكان سماع شكوى الملهوف ـ مجرد السماع ـ صدقة.. فكم يكون جزاؤك لو مشيت معه.. وتحملت عنه ذل السؤال وغدر الزمان.. وتنكر الأخلاّء؟

فى دواوين الدولة:

ويأخذ قضاء المصالح لدى المسئولين فى الدولة سمة خاصة..إن للمسئولين حجابا وأبوابا..

ولهم كذلك مشاغلهم. وقد تكون لهم أهواؤهم. وإذن فصحبتك أخاك المسلم لتمهد له السبيل إلى الدخول على المسئول منة كبرى يرفع الله من قام بها درجات. يقول ﷺ: «**من كان وصلة لأخيه إلى ذى سلطان «فى مبلغ بر» أو إدخال سرور. رفعه الله فى الدرجات العلا فى الجنة**»[2].

وأنت خبير بالمعاناة التى يتحملها مسافر من أقصى الصعيد مثلا من أجل توقيع.. يصير بالتسويف عذابا..

وأنت خبير كذلك بالنعمة الكبرى عندما يسوق القدر إليه رجلا يقف إلى جانبه ليوفر جهده وماله وأعصابه.

ومن صور الشكر على هذا الموقف ما يعد ذخرا فى صحيفة الإنسان:

(دعا رجل لآخر أحسن إليه فقال: أذل الله كل عدو لك. إلا نفسك. وجعل نعمته عليك هبة لك. لا عارية عندك. وأعاذك الله من بطر الغنى. وذل الفقر. وفرغك الله لما خلقت له. ولا شغلك بما تكفل به لك.).

حكمة الإسلام:

وقد لاحظت أن النصوص الواردة فى قضاء حوائج المسلمين تأخذ القادر بلون من الحزم لينشط فى أداء مهمته. إلى جانب ما تحتويه من ألوان الترغيب. لأنه دائما فى الموقف الأقوى. وإذا فرض على سائل اللقمة أن يتجمل حفاظا على

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف. (٢) رواه الطبرانى فى الكبير.

كرامته فإنها فيما يتعلق بصاحب الحاجة تسكت تقديرا من الإسلام لوضعه النفسى المتأزم. ولهفته الضاغطة من أجل قضاء مصلحته. فلا حرج أحيانا أن يلح ويشكو! ومن ثم.. يرصد الإسلام لخادم الناس الجزاء الأوفى شريطة ألا يتبرم.. حتى لا يذهب التبرم بأجره المعلوم.

قال ﷺ:

«إن لله عند أقوام نعما أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج المسلمين. ما لم يملوهم. فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم»[1].

ومعنى ذلك أن الوقوف إلى جانب الضعيف قيد يستبقى به الله النعم التى توشك أن تزول بالتخاذل عن نظرته أو نجدته. بشرط ألا تضيق بها.

وإلا.. فإن بعض الناس يمشى معك فى حاجتك شاعرا بثقل المهمة على نحو يكسر خاطر المحتاج إلى بشاشة وجهك. أكثر من حاجته إلى انجاز مهمته.

يقول الشاعر:

لا يدخلنك ضجرة من سائل ... فلخير دهرك أن تُرى مسئولا
لا تجبهنْ بالرد وجه مؤمل ... فبقاء عزك أن تُرى مأمولا
تلقى الكريم فيسبقنك بشره ... وترى العبوس على اللئيم دليلا
وأعلم بأنك عن قليل صائر ... خبرا فكن خبرا يروق جميلا

الحاجات النفسية:

وقد يظن ظان أن مجرد المشى فى حاجة لم تقض. لا يستأهل هذا الجزاء العظيم. لكننا ننسى الجانب النفسى فى حياة الناس وخاصة المحتاج المتأزم.. أن حاجته النفسية مقدمة على مطالبه المادية:

لأنه يشعر فى ظلك بانه لا يعيش وحده. وأنه فى عيون الآخرين المهتمين بأمره. فيحس بوجوده وإن لم تتحقق مآربه.

---

(١) رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمر.

ومن هنا كان ادخال السرور على المؤمن مطلبا إسلاميا. من حيث كان انبساط النفس ضروريا للنجاح فى عمل ما:

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:

(أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أى الناس أحب إلى الله؟

فقال:

«أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس. وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم: تكشف عنه كربة. أو تقضى عنه دينا. أو تطرد عنه جوعا. ولأن أمشى مع أخى فى حاجة أحب إلى من أن أعتكف فى هذا المسجد ـ يعنى مسجد المدينة ـ شهرا...»[1].

رجال على مستوى المسؤولية:

قال فيض بن إسحاق: كنت عند الفضيل بن عياض يوما. إذ دخل رجل وسأله حاجة وألح فى السؤال فقلت للرجل: لا تؤذ الشيخ. فقال لى الفضيل: اسكت يا فيض. أما علمت أن حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم!

فاحذروا أن تملوا النعم فتتحول نقما. ألا تحمد ربك أن جعلك موضع من يُسأل. لا موضع مِن يَسأل؟!

إن إلحاح الرجل صاحب الحاجة لم يزعج الفضيل. بل رحب به ترحيبا كان درسا لفيض بن إسحاق.

وتحمل الفضيل مسؤوليته بشجاعة إلى جانب أخوة له كانوا كراما مع من أملوا فيهم الخير.

(سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة. فوعده بها. إلا أن أبا عمرو عجز عن إجابة الرجل إلى ما طلب. ولقيه الرجل بعد ذلك فقال له: يا أبا عمرو: وعدتنى

---

(١) رواه الأصبهانى واللفظ له ورواه ابن أبى الدنيا.

وعدا لم تنجزه. فقال أبو عمرو: فمن أولى بالغم؟.. أنا.. أم أنت؟ فقال الرجل: أنا.

فقال أبو عمرو: بل أنا!؟ فقال الرجل: وكيف يكون ذلك؟

فقال أبو عمرو: لأنى وعدتك وعدا. فرجعت أنت بفرح الوعد. ورجعت أنا بهم الانجاز.. فبت ليلتك فرحا مسرورا. وبت ليلتى مفكرا مهموما. ثم علق القدر بين بلوغ الإرادة.. فلقيتنى مدلا.. ولقيتك محتشما)[1].

مقياس الإيمان:

سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنا فقال: أنا من أهل الدنيا. أم من أهل الآخرة؟

فقال له: إذا فرحت بمن يعطيك. فأنت من أهل الدنيا. وإذا فرحت بمن يسألك فأنت من أهل الآخرة.

إن الذى يعطيك يعمر دنياك. أما من يسألك فإنه يعمر لك ما تحب. وهو الآخرة.

ورعى الله رجالا وهبوا حياتهم لنصرة الضعيف. وتعليم الجاهل. وإغاثة اللهيف. ومساندة العاجز أسوة برسولهم ﷺ فيما شهدت به خديجة رضى الله عنها:

إنك لتصل الرحم. وتحمل الكل. وتقرى الضيف. وتعين على نوائب الحق. ورحم الله شاعرا حمل هموم الناس على رأسه.. وضم خلف ضلوعه قلبا خافقا معذبا مشغولا بقضاياهم وآلامهم.. وصارت حياته على ما أنشد:

مالك يا قلبى على الدروب	تبحث عن كل فتى منكوب
تصوغ من أناته وجبنـــى	هل أنت يا قلبى أبو القلوب

بل أن ناسا تقدموا على طريق الكمال خطوات أخرى حسبوا قضاء الحوائج رزقا من الثواب ساقه الله تعالى إليهم فأحبوه.. وصارت خدمة الناس عملهم اليومى.. وأنهم ليذكروننا بهذا العابد الراكع الساجد. والذى عشق الذكر حتى لم

يعد يجد فيه مشقة. . وخاف ألا يثاب على عبادة لا يشعر بثقلها فقال مناجيا ربه:

أخاف يارب ألا تثيبنى على طاعتك. . لأنى أعشقها!

الإسلام وطلاب الدنيا:

وإذا وقف الإسلام بالهاربين من الحياة على جادة الصواب. . فما هو منهجه فى العودة بطلاب الدنيا إلى ما يحب ربنا ويرضى؟

نقرأ فى ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه:

رأى يوما أناسا يتزاحمون على الأرزاق فى صخب الأسواق. .

فقال لهم: إنكم لها هنا وميراث محمد ﷺ يقسم فى المسجد؟

فانطلقوا إلى المسجد. فلم يجدوا شيئا يقسم.

فانقلبوا إليه قائلين: تهزأ بنا. وتضحك علينا؟

قال: وكيف؟ قالوا: ما وجدنا ميراثا يقسم؟

قال: فما وجدتم؟ قالوا: وجدنا أناسا يقرأون القرآن. ويتدارسون العلم.

قال: وهل ترك لنا رسول الله ﷺ ميراثا غير هذا؟

أو ثم ميراث خير منه؟!

قال ﷺ: «**تركت فيكم أمرين: لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتى**».

مغزى هذا الحوار:

ماذا رأى الداعية هنا؟ وماذا فعل؟

وجد قومه يركبون أمواج البيع والشراء. . تنازعهم أمانى الربح فى تدافع بالمناكب. وبالحيلة أنساهم واجبهم نحو تجارة رابحة أخرى هى مهمتهم الأساسية. . فماذا فعل؟

لم يواجههم بموعظة رأى أنها ستذهب سدى أمام تيار جارف من الاهتمام بالدنيا. . ولكنه ركب معهم الموجة أولا:

وكأنما يقول لهم: إنكم تبحثون عن الربح.. فلا بأس.. لكن ما رأيكم فى ربح أوفى.. وتجارة أكثر ربحا مما أنتم مستغرقون فيه؟ إنها هناك فى المسجد.. أى أنه لم ينكر التجارة ولا الأسواق كمبدأ.. لكنه يوقظ فى كيانهم معنى الحياة كما ينبغى أن تكون بلا صدام مع مشاعر مشدودة إلى الدنيا..

لقد سار مع التيار.. لتحويل مجراه.. ولم يعاكس تيارا.. ربما يحتويه ولا تغنيه فصاحته ولا أدلته. لأن الواقع الصارم أقوى من كل ذلك. وتظهر قسوة الموقف من شدة تعلق القوم بمعانى الربح والخسارة بمنطق الأسواق حين اتهموه بأنه يسخر منهم لما لم يروا سوقا كأسواقهم تحت سقف المسجد.. بيد أنه بالحوار الهادىء.. فتح أعينهم فى النهاية على أن ما رأيتموه هو التجارة التى تنجيكم من عذاب عظيم!!

ويمضى الداعية فى سبيله بعد أن سلط الضوء الكاشف فظهرت العلة التى ينبغى أن يتحسسوها ويعالجوها.. علة الجماهير الغفيرة من المسلمين العارفين بحقائق الدين.. ثم لا يوظفونها فى حياتهم.. وربما حصلوا بها على شهادات عليا.. لكنها تبقى حبرا على ورق.. لم تمش على الأرض عملا صالحا.

نعم هذا هو الميراث:

إن الاقتناع بالفضيلة معنى مجردا فى الذهن لا يغنى عن الحق شيئا.. وما أكثر المعجبين بالفضيلة.. وما أقل الذين يتبعونها. وما أكثر الذين يعلمون.. ثم يجهلون قيمة المعرفة لديهم.. هذه المعرفة الكاشفة عن حقيقة المبادىء فى دنيا الناس وأهميتها فى تحصيل الثروة والحفاظ عليها.. وفى غيبتها تغرب شمس الأمة:

أعجب الأصمعى بصبى فى سمته ومظهره. فأراد أن يمتحنه. ليختبر عقله. فقال له: يا بنى: أيسرك أن لك مائة ألف درهم وأنك أحمق؟

فقال الصبى: أعوذ بالله: قال: فمائة ألف دينار..

قال: يا عم.. ولا ملء الأرض ذهبا! قال: ولم؟

قال: أخاف أن يجنى على حمقى وضلالى جناية تذهب بمالى. ويبقى على

حمقى). ومن أجل هذا احتال أبو هريرة رضى الله عنه لابراز الميراث الحقيقى دون ما يحرص عليه الناس من صنوف المتاع وفنون الاختراع.

إنه ميراث تدخل به فى عهد مع ربك. وصراع مع نفسك.. ومع مجتمعك. وتلتزم به حتى فى أدق أمور حياتك.

وكما قيل بحق: لو أن محمدا ﷺ استجاب للعرب الذين ربطوا إيمانهم بقيم الأسواق.. فطلبوا منه أن يفجر لهم ينبوعا أو بترولا لبقوا على جاهليتهم.

ولكنه بالهداية نقلهم. وفى أقل من ربع قرن من الزمان إلى ذروة المجد.

روى العتبى عن الحسن بن قحطبة أن رجلا من «منيح» قال: جاءنا رجل مملق فأغنانا.

قال: كيف أغناكم وهو مملق «فقير».

قال: علمنا شرائع الإسلام. فعلمنا مكارم الأخلاق. وحبب إلينا الخير. والعمل والتعاون على البر والتقوى. فعاد غنينا على فقيرنا. وعمل فقيرنا فاستغنى.. فأغنانا جميعا.

وبهذا الحوار تتوارى قيم الأسواق لتسطع قيم الميراث الإسلامى وهى الثروة الحقيقية التى تشبه لفتة عثمان رضى الله عنه حينما استزاد التجار الراغبين فى بضاعته فزادوه. فأخبرهم بأن هناك من زاده أضعاف ما زادوا..

فلما قالوا: من التاجر ونحن التجار؟!

قال لم: زادنى الذى لا تنفد خزائنه ففتح القوم أبصارهم على تجارة أغلى مما يملكون.

مع إبراهيم بن أدهم:

كان ابن أدهم فى طليعة الدعاة الشاعرين بغفلة الناس عن قيمة ما يملكون من فضائل الإسلام.. ثم هم يديرون حياتهم اليومية على محاور أخرى من القيم

المادية كأنما هم لا يعلمون ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

وكان لابد من صدمة كهربية يفيقون على زلزالها ويدركون نفاسة ما يملكون من قيم الخير..

ونتساءل ابتداءً: هل هناك من العصاة من يجهل أن الله هو العليم الرازق القادر؟

ولكن أين هذه الدوافع فى كيانهم.. وهل تحولت إلى قوة بانية فاعلة؟

أبدا لقد رسبت فى القاع.. ونشطت النفس الأمارة بالسوء فأسرف العصاة على أنفسهم بينما بقيت النفس اللوامة فى غمرتها ساهية.. وهذا ما أدركه ابن أدهم حين ركز دوره مع أحد العصاة فذكره بقوة إلى ثمرات الإيمان التى غفل عنها. وكيف لو صحت فى ضميره لما أقدم على معصية أبدا:

ذهب واحد من العصاة إليه فشكا إليه إسرافه على نفسه وطلب منه العلاج فقال له: إن قدرت على خمس خصال فلن تكون من العصاة.

فقال الرجل: هات ما عندك.

قال ابن أدهم:

الأولى: إذا أردت أن تعصى الله فلا تأكل شيئاً من رزقه.

الثانية: إذا أردت أن تعصى الله فلا تسكن بلاده.

الثالثة: إذا أردت أن تعصى الله فانظر مكانا لا يراك فيه. فاعصه فيه.

قال الرجل: كيف تقول ذلك يا إبراهيم وهو أعلم بالسر وأخفى؟

فقال إبراهيم: إذا كنت تعلم ذلك فهل يجدر بك أن تعصيه؟

قال الرجل: لا.. هات الرابعة:

---

(١) الروم: ٧.

فقال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخرنى إلى أجل معدود.

فقال الرجل: كيف تقول ذلك والله تعالى يقول:

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

فقال له إبراهيم: إذا كنت تعلم ذلك فكيف ترجو النجاة؟

فقال الرجل: نعم يا إبراهيم.. هات الخامسة:

قال: إذا جاءك الزبانية ليأخذوك إلى جهنم. فلا تذهب معهم.

فما كاد الرجل يستمع إلى الخامسة حتى بكى وقال: كفى.. ثم تاب وحسنت توبته.

فأنت ترى الرجل المسرف يراجع إبراهيم بما يعرفه من علم المحيط سبحانه. ثم بما يحفظه من آى القرآن الكريم.. وفى عتاب خفى يريه الداعية ما هو واقع فيه من تناقض بين علم يقتنيه ثم لا يطبقه..

وأجمل ما فى الموقف هو قدرة الداعية على كشف العلة وتشخيص الداء تشخيصا وقف بالعاصى على حقيقة موقفه.. وكيف حصل العلم تحصيلا لم يثمر فيه ملكات الخير.. فنجح فى الامتحان النظرى. ثم رسب فى الامتحان العلمى!.. فظل فى مستواه وصار غده أسوأ من يومه.

ولقد نجح الداعية فى تنشيط النفس اللوامة فقال كلمة الفصل.. التى فتحت فى حياة الرجل صفحة جديدة تؤكد مسئولية الدعاة التى لا تنحصر فى مجرد الكلام.. ولكنها بالدرجة الأولى بيان للعلة.. عن طريق هذا الضوء الكاشف لأسبابها.. وكيف التخلص منها.. ليأخذ المذنب سمته إلى المستقبل المأمول كأن شيئا لم يكن.

وبعد: فقد كان شداد بن أوس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا كنز الناس الذهب والفضة. فأكثروا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر. والعزيمة على الرشد. وأسألك شكر نعمتك. وأسألك

حسن عبادتك. وأسألك من خير ما تعلم. وأعوذ بك من شر ما تعلم. وأستغفر لما تعلم. إنك أنت علام الغيوب».

ولو علم سدنة الأسواق ما فى هذا الدعاء من قيم الثبات.. والشكر.. والرزق الحلال.. والبراءة من الحرام.. وطهارة النفس بالتوبة.. لو علموا هذا حقا.. لبانت لهم معالم ثروة ضخمة تزرى بكل ما يملكون. بل لا بقاء لخزائن المال إلا فى حراسة هذه القيم. ولكنه الإنسان.. حيثما كان.

يقول أحد العارفين مبينا عراقة هذه العلة فى بنى البشر:

«من أعجب الأشياء: أن تعرفه.. ثم لا تحبه. وأن تسمع داعية.. ثم تتأخر عن الإجابة.

وأن تعرف قدر الربح فى معاملته.. ثم تعامل غيره. وأن تعرف قدر غضبه.. ثم تتعرض له. وأن تذوق ألم الوحشة فى معصيته.. ثم لا تطلب الأنس بطاعته وأعجب من هذا: علمك أنك لابدلك منه. وأنك أحوج شىء إليه.. وأنت عنه معرض.. وفيما يبعدك عنه راغب.

التقوى قمة الإحسان:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

فلم نكلف بنداء العبودية أن نؤمن.. لكننا بحكم الإيمان الحاصل فعلا مأمورون بالتقوى كصورة عملية للعقيدة..

إننا عباد الله.. ومؤمنون به.. فلنتقدم على طريق الكمال خطوة يتم بها الميثاق ويكون بها الالتزام.. بالتقوى: **﴿... اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾**

السفر البعيد! ولكن الزاد هنا قليل، والشقة بعيدة، والتكليف شاق؟

والذى خلق الإنسان أدرى بطبعه.. ومن ثم.. يمهد له السبيل.. ويحمله برفق ولين ليخوض الغمرات.. ويجتاز مراحل الطريق بسلام.. ونحن واجدون

(١) الزمر: ١٠.

فى كلمات الآية الكريمة ومضات من هذا الود وتلك الرحمة تعين على أمر الله:

فالنداء بوصف العبودية وما فيه من حنو.. ووصف الإيمان وما يفرضه من الوفاء بالتزاماته.. ثم إضافة المنادى إلى ربهم وما يوحى به من سابق النعم ولاحقها أيضا. مع إحساسك بأنك على أوفى معانى الإحسان بهذه التقوى. كل أولئك باعث للهمم من مراقدها لتنطلق عاملة آملة. ولترتقى بهذه الحركة المباركة قمة الإحسان: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾.

ولا يرضى منك الإسلام أن تستسلم للواقع الضاغط. على حساب تقواك بفضائلها.

فإذا سمحت لك الظروف بالحركة صاعدا فى مراتب الكمال الإنسانى.

فيها. وإلا. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ ولا عذر لك فى البقاء بأرض لا تحقق فيها إنسانيتك.

وإذا قال الشاعر:

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

فإن هناك ما هو أعز من قومك وأكرم. وهو: دينك الذى أكرمك الله به. ومبادئك التى استخلفك عليها.

وصحيح أن فراق الأوطان مر المذاق لدى الإنسان. ولكن عدتك من الصبر الجميل تستعلى بك فوق المتاعب والمصاعب.

ذلك بأن الصبر ضياء. والحياة فى انوره أوسع ما تكون. كما وأن اليأس ظلام. فالحياة فى أثره أضيق ما تكون:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

الأسوة الحسنة:

فإذا أنت أخذت نفسك بالصبر سبيلا إلى تحقيق التقوى. كأخلاق عملية فى كل اتجاه. وعلى كل مستوى.

فأنت مطالب بأن ترفع بصرك إلى أعلى. لتملأ عينيك بمشهده ﷺ. إنه

أمامك يمشى على ذات الطريق!.

﴿قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت أن أكون أول المسلمين﴾

فهو لا يأمرك بالتقوى من خلف المكتب الوسيم. أو عبر مكبر الصوت. لا. إنه يتقلب أمامك فى دروب الحياة محققا مضمون الإيمان. لتنسج على منواله. وتترسم خطاه.

فى رحلة لا ينجح فيها إلا العاملون. الذين يدعمون بهذا العمل مفهوم الإيمان فى القلب. أى أن صور النشاط الإنسانى كلها فوق أنها مقصودة لذاتها.

تثبت فى ذات اللحظة دعائم الإيمان بهذه الممارسة العملية التى تنعكس آثارها على الباطن رسوخا وثباتا.

إن النفس الموصولة بالحق الماضية على طريق الخير طاعة لأمره سبحانه. حتى وإن عرضت لها من الشيطان عوارض. تبقى دائما على عهدها القديم. وفاء وولاء. ولا يفقدها الصراع الدائم قدرتها على الكشف. ما بقيت سائرة على الدرب.. محققة منهجها فى واقع الحياة على نحو صارم.. لا يجامل فى الحق.. والمتقون فى هذا المجال فرسان الحلبة.

وحين تقرأ قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[1].

يبرز دورهم العملى الذى ينعكس على الباطن ضياء كاشفا.. يميزون به الخبيث من الطيب.. فينفرون من الأول. ويمضون إلى الثانى.

إن الحركة الذاتية طاعة لله تقوى الملكات النفسية فى كيان الإنسان. وتمنحه قدرا من الطاقة.. يعينه على قطع مرحلة أخرى عبر الطريق الطويل..

وفى هذا المعنى نقرأ ما قاله المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «دستور الأخلاق فى القرآن» وهو يتحدث عن أثر النشاط المادى فى حركة الحياة:

الذى (يصبح دوره مزدوجا: فبدلا من أن يجنح بنتائجه إلى الخارج فقط..

---

(١) الليل: ٥ ـ ٧.

يستدير فى الوقت نفسه إلى الداخل. ليقوى استعداداتنا الفطرية. ويزيد فى تأصيلها.

ألم يؤكد القرآن أن الإحسان يثبت النفس فقال جل ذكره: **﴿ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم﴾**.

ويطهر الإنسان. ويزيد فى قيمته: **﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾**.

وهذا هو شأن الأعمال الصالحة كلها كما قال الإمام الغزالى.. فالغرض منها أساسا تغيير صفات أنفسنا.. قال الإمام:

(فلا تظن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا. من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب.

فإن من يجد فى نفسه تواضعا.. فإذا استكان بأعضائه.. وصورها بصورة التواضع. تأكد تواضعه.

ومن وجد فى قلبه مودة يتيم. فإذا مسح رأسه وقلبه تأكدت الرقة فى قلبه) ويقول قبل ذلك:

(وإذا حصل أصل الميل إلى المعرفة. فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه. فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب. وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة. حتى ترسخ الصفة.. وتقوى بسببها.. وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر. وربما زال وانمحق. بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا. فيميل إليه طبعا ميلا ضعيفا. لو تبعه وعمل بمقتضاه.. فدام على النظر والمجالسة، والمخالطة، والمحاورة. تأكد ميله. حتى يخرج أمره عن اختيار. فلا يقدر على النزوع عنه.

ولو فطم نفسه ابتداء. وخالف مقتضى ميله. لكان كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل.

ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة. وترك المعاصى بالجوارح.. لأن بين الجوارح والقلب علاقة.. حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر. فالقلب

هو المقصود. والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود).

وبهذا يتضح دور المتقى فى ترقية الحياة. فليس هو ذلك الهارب فى مغارة جبل أو مدخل.

يد أنه الصورة المتحركة.. التى تملأ العيون.. وتؤكد بحركتها ذاهبة آية قدرة الإسلام على بناء الإنسان الفاضل.. والمجتمع الفاضل.. لقد حرص أعداء الإسلام على صنع نماذج تنتسب إلى الإسلام اسما.. حتى إذا رآها السطحيون حكموا على الإسلام من خلالها.. ثم ضعفت ثقتهم بالإسلام تحت ضغط هذه الدعاية الكاذبة الخاطئة.. وواجب الدعاة أن يكثروا العمل.. تدعيما للنظام.. لا أن يكثروا القول تشدقا بالكلام.. وإذا كان المتقى كما قال: الحكيم الترمذى:

(بمنزلة رجل خرج من الحمام.. وقد تطهر من الأدناس والأوساخ) ولبس ثيابا بيضاء فإذا رأى غبارا أو هاجت رياح. توقى على رأسه وثيابه أشد التوقى).

إذا كانت هذه صورة المتقى.. فإن دوره يأخذ شوطا آخر على طريق العمل الإيجابى.. ذلك الدور الذى لخصه الحكيم الترمذى هنا أيضا بقوله:

(.. وأن يحدوهم على الخيرات.. ولا يدعوهم إليها)[1].

أن تكون له فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة.. فلا يكتفى بالدعوة المجردة إلى الخير.. بلسانه.. بل يحملهم عليها بعمله أولا. أن عملا واحد تراه العيون أبلغ من ألف خطبة بليغة!

*****

(١) أى لا يكتفى بالدعوة باللسان فقط.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة